النظريات الاجتماعيه

(المستوى الثامن)

RoshoF

المحاضرة (١)
في معنى النظرية الاجتماعية

العلاقة بين النظرية والواقع

يفتَرِض كثير من الناس أن هناك فجوة واسعة بين النظرية والواقع. إذ يُنظر إلى النظرية باعتبارها شيئا مبهماً وغامضاً، ومجالا خاصا للمفكرين والفلاسفة وحدهم، ومن ثمّ فلا صلة بين النظرية والواقع . ذلك الواقع الذي ينظر إليه الناس على أنه عملي وجزء من الحقيقة ويختص بشئون الحياة اليومية.

ما سبق من رؤية تعد مشوهة وخاطئة، وتعكس رِدَةً في الفكر الإنساني، وعلى نقيض الرأي السائد بين الناس، فإذا نظرنا إلى حقيقة العلم ومضمونه نجد أن العلم ما هو إلا منهج لتسجيل الخبرات البشرية والربط بين عناصرها على أسس عقلية. وتعتبر النظرية ما هي إلا مجموعة من الروابط العقلية التي تشرح وتفسير كيف تعمل ظاهرة معينة(اجتماعية أو طبيعية) في حياتنا اليومية .

بل ربما كان الربط بين الظواهر هو المهمة الأولى للعلم، فأنه لا يقتصر دوره على جعل معرفتنا المتشعبة قابلة للتعامل معها بطريقة منتظمة، بل تمتد إلى تنمية معرفتنا الحاضرة والمستقبلية . ووظائف العلم هذه هي ما يلخصها العلماء في أربعة أهداف لأية علم من العلوم، وهي(الوصف، والتفسير، والتنبؤ، والتحكم). كما أن الربط بين بين الظواهر يكشف عن خبراتنا التي تُظهِر للوهلة الأولى أنها متفرقة أو متباينة. لذا نجد أن العلماء يضحون بآرائهم السابقة من أجل تحقيق الربط العقلي بين ملاحظاتهم، لأنهم يخشون الأشياء المبعثرة أكثر من خشيتهم من الأشياء المبهمة.

والمقصود بالربط العقلي Rational correlation : هو عملية التفسير، أو يعني العلاقة المنطقية بين الظاهرة موضوع البحث وبين ظاهرة أخرى أو مجموعة من الظواهر سواء كان هذا الربط مباشراً أو غير مباشر، فمحاولة الربط بين الظواهر كما يمارسها العلم تقوم على أسس عقلية، كالمقارنة، واستنباط أوجه الشبه الكلية، وإمكان القيام بعدد من التجارب والمشاهدات للتأكد من ثبات الارتباط.

وكذلك يلاحظ أن الربط العقلي أيضا يمثل الأساس في قدرتنا على التنبؤ، ذلك أننا إذا استطعنا أن نكشف عن ارتباط دائم بين (أ و ب) فإنه كلما شاهدنا (أ) أمكننا أن نتنبأ بحدوث (ب).

وهكذا نرى أن النظرية هي شيء لصيق بالواقع العملي والحياة اليومية، إذ من خلال ما سبق تمثل النظرية الأساس لكل أجزاء المعرفة الإنسانية، وأساس للتفسير اليومي الذي يقوم به الفرد للظواهر الاجتماعية والطبيعية. إن مثل هذه التفسيرات اليومية هي متضمنة في الملاحظات العملية، أي فيما نلاحظه يوميا ونحاول تفسيره وفهمه.

ثم إذا نظرنا إلى عملية التنظير Theorizing نفسها وهي ما نعني به: (تكوين وتحسين الشروح التفسيرية) نجد أنها عملية يقوم بها الإنسان بصفة دائمة، بوصفها عملية أساسية للمعرفة العملية والتأثير الاجتماعي المتبادل، أي التفاعل الاجتماعي اليومي.

وهكذا سواء حاول عالِم الطبيعة شرح بناء الخلية وذراتها ومكوناتها، أو حاول أبٌ مساعدة ابنه لماذا يجب أن لا يكذب أو لماذا يجب أن لا يغش، ففي كلتا الحالتين هي محاولة لشرح وتفسير ما يمكن أن يحدث من اضطراب في العلاقات الطبيعية والاجتماعية (نتيجة للكذب أو الغش) . فالعالِم والأب قاما بعملية التنظير (تكوين وتحسين الشروح التفسيرية). إذن فالنظرية متضمنة في كل هذا بطريقة ما ، بمعنى مجموعة العلاقات والمترابطة عقلياً بين بعض خبراتنا البشرية.

ولهذا يمكن أن نلاحظ أن النظرية متضمنة في العلاقات المتبادلة بين الأشخاص، وفي المجهودات العلمية الإنسانية. ذلك بسبب أن الناس عادةً يميلون إلى تعليل وتفسير بيئتهم الاجتماعية والنفسية.

غير أن هذه العملية (التعليل والتفسير) تحدث داخل بيئة اجتماعية محددة، بتحديد من الفكر والأيديولوجيا السائدين وتجارب التاريخ من أجل تعريف الحقيقة الطبيعية والاجتماعية في هذا البناء. فتفسير ظاهرة المطر في ثقافة بدائية يختلف تماما عن تفسيرها في ثقافتنا.

وبالمثل في المجال الاجتماعي فنظريةٌ في الاقتصاد في ثقافة غربية أو شيوعية تختلف تفسيراتها عن نظرية في ثقافة إسلامية.

ما النظرية الاجتماعية؟

اختلف مفكرون كثيرون في تعريف النظرية وتحديدها، لكن يمكن القول بأن النظرية الاجتماعية مجموعة من الافتراضات التي تهتم بالمجتمع والظواهر الاجتماعية، على أساس أن المجتمع وظواهره لهما واقعهما الاجتماعي المنفصل عما عداه من الظواهر، ولقد بذل دوركايم جهدا منهجياً كبيراً من أجل تحقيق هذا الهدف، وأصبحت هذه حقيقة يأخذ بها كل علماء الاجتماع.

كما أن النظرية الاجتماعية تقف في تضاد مع أنساق التفكير المبكرة التي كانت تتسم بالأسطورة والخيال والثيولوجيا والطبيعية عند شرحها وتفسيرها للظواهر الاجتماعية. فالنظرية الاجتماعية الحديثة تقوم على أساس وجود النسق الاجتماعي (المجتمع) كذات مستقلة في تعارض مع الظواهر الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) أو الثيولوجية (الدينية).

ومن ثمّ يمكن اعتبار أن النظرية الاجتماعية نشأت لتبرز تطور ونمو نمط ونسق من التفكير الذي حلت فيه فكرة واقعية المجتمع والحقيقة الاجتماعية محل التفسيرات السابقة التي كانت سائدة في منتصف القرن(١٩م) وما قبله، ومن ثمّ صاغ المنظرون Theorists مفاهيما عن الحقيقة الاجتماعية واستخدموها في شرح الظواهر الاجتماعية.

وهكذا أصبحت النظريات الاجتماعية تقدّم مفاهيما عن النظام الاجتماعي والحالة التي يتغير فيها، أي تقدم مفاهيما عن بناء المجتمع والعمليات الاجتماعية Social process .فإذا كانت النظرية الاجتماعية هي: مجموعة من الافتراضات التي تحاول شرح وتفسير العلاقات بين الظواهر الاجتماعية . فطبقا لذلك تصبح النظرية الاجتماعية عبارة عن قضايا تجريدية ومنطقية مصاغة في شكل مفاهيم اجتماعية.

ولكن ذلك لا يعني أن النظرية الاجتماعية هي مجرد مجموعة من المفاهيم الاجتماعية المتراصة عشوائيا، بل إن المنظِّر Theorist عندما يكتشف بعض المفاهيم النظرية Social consepts يتجه إلى الربط بين اثنين أو اكثر من هذه المفاهيم في شكل تقارير عن الحياة الاجتماعية Statements .

ومهما بلغنا من الدقة في وصف ظاهرة معينة بمفهوم علمي، إلا أننا لا نستطيع استخدام ذلك المفهوم للشرح والتنبؤ، إلا من خلال الوصول للتقرير النظري السابق.

فمثلا بمجرد أن نفترض Hypothesis (أنه كلما زادت درجة تركيز التنظيم كلما زادت الكفاءة الإنتاجية) على حد قول ماكس فيبر، أو (كلما زادت كثافة السكان زاد تقسيم العمل) كما قال دوركايم، أو (كلما زادت حدة التدرج الطبقي كلما زاد الصراع الاجتماعي) وفقا لماركس، أو (كلما زاد الصراع كلما زاد التكامل الاجتماعي) على حد قول سيميل. نلاحظ أنه في هذه التقارير قد تحركنا من مجرد الوصف إلى شكل من أشكال التنبؤ.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك عددا من المصطلحات والمفاهيم التي تشيع الاضطراب والحيرة حول اصطلاح التقرير النظري، ومن بين تلك المصطلحات: الفرض Hypothesis والقضية Proposition ،والبديهية Axiom ،والافتراض Assumption الخ. وفي الحقيقة أنه لكل من المفاهيم السابقة معناه الذي يكون غير

واضح أحياناً. فقد أشار (زيتربرج) إلى أن الفرض هو تقرير نظري غير مثبت بينما القضية مثبتة ومبرهنة بالدلائل.

وبالمثل تعمل كثير من المفاهيم على إبهام وغموض اصطلاح النظرية، ذلك أن هذه المفاهيم تفتقد قوة التفسير، مما يجعل الأمر يختلط على كثير من الدارسين. وأهم تلك المفاهيم : الوصف Description ، والتنميطTypology ، والنموذج Model ، والتنبؤ Prediction .

ومما يزيد الأمر صعوبة أنه لا يوجد اتفاق بين علماء الاجتماع على تعريف واحد للنظرية، لذا من المهم التمييز بين النظرية وتلك المفاهيم السابق ذكرها حتى يتضح لنا تماما معنى النظرية، وأبرز صفاتها وخصائصها الأساسية.

إن الوظيفة الأساسية لنظرية ما هي: محاولة تفسير أو شرح علاقة الظاهرة موضوع البحث وظاهرة أو ظواهر أخرى ، أي أن الوظيفة التفسيرية هي التي تميز النظرية عن تلك المفاهيم التي لها علاقة بالنظرية لكن ليس لها قدرة تفسيرية.

مفاهيم ترتبط بالنظرية الاجتماعية

فمفهوم الوصف: يشير إلى تحديد أو سرد خصائص ظاهرة ما دون تفسير لوجودها أو تغيرها، فوصف لثقافة فرعية مينة كثقافة زنوج وسط أفريقيا لا يفسر علة وجود مثل هذه الثقافة، ولا يشرح التطور والتغير في تلك الجماعة.

ويدل مفهوم التنميط : على مجموعة من الخصائص أو المميزات يفترض أنها تشير إلى ظاهرة معينة أو أن هذه تعبر عن هذه الظاهرة تعبيرا نمطيا. فمثلا فالتنميط للأسرة كأسرة نووية أو ممتدة لا يشرح ذلك أو يعلل شيئا داخل مثل هذه الوحدة الاجتماعية.

وكذلك ينظر إلى النماذج: أحيانا باعتبارها (أنماطا) وتقوم النماذج على ملاحظة أقل دقة، كما تحدد العلاقات المتداخلة بين الخصائص، لكنها تفتقد القوة التفسيرية، فمثلا نموذج المجتمع الصناعي المتقدم في المستقبل يمكن أن يكون مفيدا، ويمكن أن يكون مقاما على أساس بيانات تجريبية. لكن تلك النمذجة لا تفسر التطور أو تفسر بناء ذلك المجتمع أو العمليات الداخلية في مثل هذا المجتمع أي النموذج المقترح، أي أنه ينقصه القوة التفسيرية.

أما التنبؤ: فيعني: أن المرء يمكن أن يعرف موقف فرد بالنسبة للمتغير(س) بناء على معرفة موقفه من المتغير (ص) وذلك من خلال ارتباطات وعلاقات تجريبية ومشاهدات سابقة قد لوحظت بين المتغيرين، وقد يكون بمقدور الباحث أن يقدّم ويعرض مستويات أعلى من التنبؤ، لكن دون أن يستطيع فهم هذه العلاقات ويفسرها. فالمعلم على سبيل المثال قد يكون قادرا على التنبؤ بدرجات طلابه من خلال منجزاتهم على مدار العام الدراسي، بل وبدرجة عالية من الصحة، دون أن يكون قادرا على تفسير العلاقات، خاصة عندما يتفوق طالب في مقرر ويخفق في مقرر آخر. وهكذا فالتنبؤ بحكم طبيعته لا يقدم بأي حال نظرية ما أو يقدم تفسيرا وشرحا لها.

ونخلص إلى أن كل المفاهيم السابقة (الوصف، والتنميط، والنماذج، والتنبؤ) هي أجزاء من بناء النظرية لكنها لا تفسر وحدها الظواهر ولا العلاقة بين متغيراتها، وهذا ما يؤكد أن الوظيفة الأساسية للنظرية هو قدرتها التفسيرية.

تعريف النظرية من حيث البناء

ومن أجل إلقاء الضوء على الخصائص الأساسية لنظرية ما، سيتم استعراض بعض تعريفات كبار دارسي النظرية وأعطوا اهتماما كبيراً بها.

١- تعريف (بلالوك) النظرية: يجب أن تحتوي على قضايا أشبه بقوانين تربط بين مفهومين أو متغيرين أو أكثر في الوقت نفسه.

٢- تعريف (ويلر) النظرية :هي مجموعة متكاملة من العلاقات المتكاملة ذات مستوى معين من الصدق.

٣- تعريف (هيج) النظرية: هي مجموعة من القضايا أو الأحكام النظرية.

يلاحظ أن كل واحد من هؤلاء الكتّاب – وغيرهم – يركز على جانب محدد من جوانب النظرية، يختلف فيه عما اهتم به دارس آخر لها. إلا أنه يمكن ملاحظة عدداً من الخصائص العامة المشتركة عند صياغة النظرية كـ : التجريد، المنطق، القضايا، التفسيرات، والربط بين العلاقات ، وأخيراً القبول من المجتمع العلمي. لذا يمكن تعريف النظرية بأنها: (مجموعة من القضايا المجردة والمنطقية تحاول تفسير العلاقة بين الظواهر المدروسة)

ومما سبق يمكن ملاحظة أن أساس أي نظرية هو ذلك النموذج الذي تقدمه كتفسير للحقيقة الاجتماعية أو الطبيعية. وعادة ما يتكون ذلك النموذج من عنصرين، هما:

مفهوم Concept عن الظاهرة، مثلا يمكن النظر إلى المجتمع كمجموعة من النظم المتساندة.

افتراضات Assumptions توضح العلاقات السببية، مثل وجهة النظر التي تعتبر ان البناء الاجتماعي يتطور في استجابة لحاجات النسق أو الوظائف الأساسية لمجتمع.

تعريف النظرية في علم الاجتماع من حيث هدفها

مجموعة من الافتراضات التي تهتم بالمجتمع، تحاول شرح وتفسير العلاقات بين الظواهر الاجتماعية والتنبؤ بها.

مجموعة من العلاقات تستخدم لشرح وتفسير كيفية عمل وتفاعل مجموعة من الظواهر.

تراكم مترابط ومفاهيم وتصورات تأخذ شكلا منظما بقصد تفسير الأحداث الاجتماعية وبلورة "قوانين" لها القدرة على التعبير عن الواقع والتنبؤ به.

مجموعة من القضايا المقبولة والمنطقية تحاول تفسير العلاقة بين الظواهر.

المحاضرة (٢)
بناء النظرية الاجتماعية وأنماطها ونماذجها الكبرى

بناء النظرية

يتطلب بناء النظرية الاجتماعية إلى العديد من الخطوات والمراحل، هي :

١- نموذج النظرية :

الأساس لأي نظرية هو نموذجها الذي تبرزه، والذي يتركب من صياغة مفاهيم معينة عن الظواهر، والعلاقات التفسيرية الهامة التي توضح وتعلل حالة الظاهرة عند عملها وتفاعلها، وهكذا تكون الظواهر موضع البحث قد تم تعريفها من خلال مفاهيم محددة، ويبدو أن هذه النماذج في نظرية علم الاجتماع تاخذ شكلا واحدا من أشكال ثلاثة أساسية، هي:

أ - نظرية عامة تصور المجتمع باعتباره نسقا متكاملا يؤدي وظائفه، (وهذا هو الشكل أو المدخل الوظيفي البنائي).

ب - نظرية عامة تركز على المجتمع باعتباره نسقا ديناميكا متغيرا يسيطر عليه الصراع باستمرار، ويقوم على التنافس والاستغلال،(وهذا الشكل هو مدخل الصراع الراديكالي).

ج - نظريات تهتم بالظواهر الاجتماعية على مستوى العلاقات بين الأشخاص، أي المستوى الضيق المحدود، ويركز على عمليات مثل التنشئة وسلوك الدور (وهذا المدخل هو السلوكية الاجتماعية).

٢- المفاهيم :

يتضمن أي نموذج مفاهيم معينة، وهي عبارة عن اسم أو عنوان لمجموعة من الظواهر، مثل (الشخصية، الطبقة الاجتماعية، التغير الاجتماعي) وهذه المفاهيم تحتاج إلى عناية فائقة في تحديدها، وأن توضح بدقة علاقتها بالنموذج الموضوع.

٣- العلاقات المنطقية بين المفاهيم :

تحتاج العلاقات المنطقية بين تلك المفاهيم إلى تأكيد،أي ان تكون مترابطة منطقيا ونظرياً، وشكل تلك العلاقات قد يكون مسلمات أو قضايا أو تقارير، كما أن تلك العلاقات قد تكون إيجابية أو سلبية...الخ.

٤- الاجراءات :

تحتاج المفاهيم وحالات العلاقات إلى أن تعرّف إجرائيا وتجريبيا في شكل متغيرات، مثل اختبارات الشخصية،ومقاييس الطبقة الاجتماعية، ومقاييس معدلات الحراك الاجتماعي الخ، ويجب أن يقاس كل متغير بعدد من الفقرات الخاصة في استمارة البحث.

٥- المنهج :

ويقصد به المنهج التجريبي لاختبار الفروض، بمعنى اختبار العلاقات التي افترض الباحث وجودها بين المتغيرات، ويتوقف اختيار المنهج على نوع الدراسة، وطبيعة متغيراتها، كما أن فاعلية المنهج المستخدم مقيد بقدرة الباحث على إتقان البحث، والتقليل من خطاء القياس وخطأ تحليل البيانات.

٦- تحليل البيانات:

بعد جمع البيانات فإنها تحتاج إلى تحليل في ضوء الفروض الأساسية للنظرية، ويستخدم في تحليل البيانات التقنيات الإحصائية المختلفة التي يجب أن تستخدم بأسلوب علمي، وفي حالة استخدامها بشكل خاطئ أو بسذاجة، فهذا يقود إلى أخطاء بالغة في نتائج البحث.

٧- تفسير البيانات:

بعد تحليل البيانات يجب على الباحث تفسير نتائج البيانات في ضوء بناء نظريته، من حيث نموذجها الأساسي ومسلماتها وقضاياها وفروضها.

٨- تقييم النظرية :

وأخيراً يبحث المنظر(الباحث) عن تقييم النظرية في ضوء معيارين:

١- كفاءة ومجال ومنطق بنائها النظري.

٢- مستوى قابليتها للاختبار والتنبؤ والدقة عندما تخضع للاختبار التجريبي .وعند هذه النقطة يكون للباحث عددا من البدائل الممكنة:

- تأكيد النظرية.
- إما شطب النظرية كلية.
- وإما تعديل نموذجها الأساسي وتنمية مسلمات وقضايا وفروض أكثر.
- أو استخدام منهج جديد.

وهنا يجب أن لا ييأس المنظِّر وذلك لأن عملية التنظير هي عملية مستمرة وديناميكية . تخضع لتغيير وتعديل مستمر.

أنماط (أنواع) النظرية الاجتماعية

يتباين علماء الاجتماع في درجة نظرتهم إلى النظرية الاجتماعية ، وفيما يلي استعراض أبرز أنماط النظرية الاجتماعية وفقاً لاختلاف منظروها :

١. **النظريات المنطقية في مقابل اللامنطقية:** أي التي تقوم على قوانين المنطق، وذات طابع علمي وتستند إلى فروض وتهدف إلى الوصول إلى أحكام يقينية. وقد تفتقد إلى ذلك فتسمى حدسية ، والنظريات المنطقية تكون في العلوم الطبيعية.

٢. **النظريات الوصفية مقابل التفسيرية:** أي تهدف إلى وصف الواقع أو الظاهرة دون محاولة تفسيرهما، وقد تفشل النظرية عن التفسير بسبب غياب أو عدم وضوح نموذجها الأساسي .

٣. **النظرية الأيديولوجية مقابل العلمية:** أي التي لا تكون موضوعية(علمية) بل موجهة فكريا. ويلاحظ أنه لا نظرية كاملة الموضوعية في علم الاجتماع، فكلها أيديولوجية ولكن بنسب متفاوتة.

٤. **النظرية الحدسية في مقابل الموضوعية:** أي التي تتبع المنهج الذي يدعي أن المعرفة ذاتية "حدسية " في مقابل النظريات الموضوعية التي تقول بخارجية الظواهر، وأنه يجب تطبيق المنهج الموضوعي (العلمي) لدراستها.

٥. **النظريات الاستقرائية في مقابل الاستدلالية:** أي التي تنطلق لفهم الواقع من الجزء وصولا للكل، والاستدلالية على العكس من ذلك. وأغلب نظريات علم الاجتماع هي من النوع الاستدلالي (الاستنباطي).

٦. **نظريات الوحدة الكبرى (طويلة المدى) في مقابل نظريات الوحدة الصغرى:** ويتوقف ذلك على المستوى التحليلي للنظرية ، فالأولى تميل إلى تعميم تفسيراتها للظواهر، في حين تميل الأخرى للتخصيص أكثر من التعميم.

٧. **نظريات بنائية في مقابل الوظيفية:** أي تهتم بتفسير بناء (وجود) الظواهر الاجتماعية ، في مقابل التي تهتم بتطور الظاهرة وتغيرها. وفي علم الاجتماع تمثل النظرية الوظيفية الاتجاه البنائي ، بينما الصراعية تركز على ديناميكية المجتمع.

٨. **النظريات ذات الاتجاه الطبيعي في مقابل الاجتماعي :** حيث تهتم بتفسير الظواهر الاجتماعية بعوامل طبيعية، كالنظرية العضوية أو الجغرافية، في مقابل ذات الاتجاه الاجتماعي التي تفسر الظواهر الاجتماعية بعوامل اجتماعية بحته، كالتصنيع أو تقسيم العمل...الخ.

ما سبق من استعراض يوضح اختلاف النظريات الاجتماعية في أنماطها .

الأنماط الكبرى للنظرية الاجتماعية

أولاً: النمط العضوي – الوظيفي – البنائي :

ينظر هذا النمط للمجتمع على أنه نسق ذو أجزاء مترابطة وظيفيا.

والشكل الأول من هذا النمط هو تلك الدراسة العضوية التي تعتبر أن هناك عدد من القوانين الطبيعية تتفاعل في المجتمع بأسلوب ميكانيكي عضوي.

والشكل الثاني للدراسة العضوية هي النظرة إلى المجتمع على انه كائن عضوي، ويبدو ذلك في كتابات دوركايم وتونيز وغيرهم، فهؤلاء العلماء يعتبرون المجتمع عضوي يعتمد على نسق تقسيم العمل، والذي بدوره مرتبط بأنواع من المعايير أو الإرادة الاجتماعية التي تربط الفرد بوضعيته الاجتماعية. وهذه الدراسة تركز على الناحية الاجتماعية أو النسقية أكثر من الظواهر الطبيعية.

ولكن كلاً من الشكلين يعتبر عضوي في نظرته للمجتمع على أنه نسق عضوي متكامل.

ويعتبر النمط (الاتجاه) الوظيفي البنائي هو الاتجاه المعاصر للاتجاه العضوي السابق والذي كان الخطوة الأولى في هذا النوع من الدراسة، ويركز هذا الاتجاه الحديث على أسلوب يعرض النسق الاجتماعي(المجتمع) على أنه يتضمن عددا من الوظائف الهامة أو المشاكل المجتمعية التي امكن حلها اجتماعيا عن طريق تطور عدد من الأنساق الاجتماعية الفرعية.

ويلاحظ أنه بصفة عامة تتجه النظريات العضوية – الوظيفية – البنائية غلى محاولة صياغة مفاهيم عن المجتمع على أنه نسق عضوي متكامل سواء عند مستوى تحليل الوحدات الصغرى او الوحدات الكبرى. وتعتبر المجتمع نسقاً يتطور نحو مزيد من التكامل الاجتماعي، ومزيدا من الكفاءة الذاتية.

وهذه النظريات لها جذور في فلسفة عصر التنوير، ثم زادت دقتها شيئا فشيئا، أولا بتلك المناظرات البيولوجية التي كانت على اساس النظرية الاجتماعية في أيامها الأولى، ثم انفصلت شيئا فشيئا أيضا لكن احتفظت بفكرة النسق وبنائه من أنساق فرعية تتكامل وظيفيا وتترابط عضويا، وهي الفكرة التي نشأت أولا في العلوم الطبيعية.

ثانياً: نمط الصراع :

نظريات الصراع مثلها مثل النظرية الوظيفية البنائية من ناحية تركيزها على فكرة النسق الاجتماعي، لكنها ترى ان الصراع يسود النسق الاجتماعي أكثر من الاستقرار والتكامل، إذ أنه أثناء صراع الأفراد مع الطبيعة لاشباع حاجاتهم الأولية تظهر أنواع مختلفة من أشكال الصراع التي يعتبرها أصحاب هذا الاتجاه أنها أساس النسق الاجتماعي(المجتمع) وأساس تطوره. وهكذا يصبح النظام الاجتماعي في حالة صراع وتطور دائم.

تظهر دراسة الصراع الكلاسيكية في اعمال كارل ماركس ، والذي استخدم المنهج الجدلي المادي لتحليل تاريخ الصراع البشري مع بعضهم البعض من ناحية وصراعهم مع الطبيعة من ناحية اخرى.

أما نظرية الصراع المعاصرة – أي الصراعية الكلاسيكية في شكلها الحديث- فهي تحاول تحسين وإضفاء مزيدا من الدقة على النظرة الماركسية من أجل جعلها تتناسب مع فهم المجتمع الصناعي الحديث ومشاكله. ومن أبرز علماء الصراعية الحديثة (رالف داهرندورف) الذي وضع نظرية حول صراع الجماعة. وغيره من العلماء كلويس كوزر ورايت ميلز.

ثالثاً: النمط السلوكي الاجتماعي:

هذا النمط على عكس النمطين السابقين، حيث يحلل ويفهم المجتمع عند مستوى الوحدات الصغرى والعلاقات الشخصية المتبادلة، وتعتمد في تفسيرها على الاستقراء أكثر من الاستدلال. وبصفة عامة تنظر الى المجتمع من خلال الفرد والتنشئة الاجتماعية وأداء الدور والتبادل ، أكثر من اعتبارها المجتمع كنسق وظيفي. ويظهر هذا النمط في أعمال جورج ميد وبلومر وغيرهم.

المحاضرة (٣)
التطور التاريخي للنظريات الاجتماعية

التطور التاريخي للنظريات الاجتماعية

يحوي التفكير الاجتماعي في الحضارات القديمة في الصين والهند واليونان والرومان بعض المشاهدات والتعميمات عن المجتمع الإنساني، وما يحوي هذا المجتمع من ظواهر اجتماعية كالحرب والسلام والجريمة والعقاب والعلاقات الاجتماعية والثورات والنظم الاجتماعية.

ولكن الآراء التي يحويها التفكير الاجتماعي القديم وإن تناولت الموضوعات نفسها التي تتناولها النظريات الاجتماعية، فإن منهجها في الوصول إلى أحكامها لم يكن يستند إلى الأساس المنهجي الذي تستند إليه النظريات الاجتماعية، وذلك لما يلي:

١. أن هذه الآراء لم تستند الى المشاهدة المنظمة، بل واستندت الى مشاهدات عارضة وأمثلة متفرقة، بحيث يمكن للمفكر القديم أن يذكر تلك المشاهدات.

٢. أن هذه الآراء اصطبغت بطابع تقويمي، يعكس وجهة نظر المفكر فيما ينبغي أن تكون عليه النظم الاجتماعية كالنظام الأسري والنظام السياسي والنظام الاقتصادي أكثر من استنادها الى الطابع التقريري الذي يقرر الحقيقة دون ربطها بأهداف أخلاقية.

* من هنا نستطيع القول أن علم الاجتماع لم يكتسب طابعا منظما قبل القرن (١٤م) حين نشر الفيلسوف العربي ابن خلدون مقدمته الشهيرة في عام ١٣٧٧م ، حيث ناقش لأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني المشكلات الرئيسية التي يناقشها علم الاجتماع اليوم، وذلك في ضوء التفرقة التي وضعها هذا المفكر بين (مجتمع البداوة ومجتمع الحضر). لذا يجب أن يوضع ابن خلدون في مصاف الرواد في علم الاجتماع بجانب أفلاطون وأرسطو وفيكو وكونت.

جذور النظريات الاجتماعية منذ عصر التنوير حتى الأزمنة الحديثة.

ظهر الاهتمام بالمشكلات التي تناولتها النظريات الاجتماعية منذ عصر النهضة، مما أدى الى تزايد عدد الدراسات التي تناولت هذه المشكلات في القرنين(١٦م) و (١٧م) ولقد ظهرت هذه المشكلات في آراء ميكافيلي، وفرنسيس بيكون، وتوماس مور، وهوبز ، ولوك وغيرهم.

ولقد استندت الدراسات التي تناولت الظواهر الاجتماعية في هذه الفترة الى أساسين:

أولاً: الأساس النقدي:

يتمثل في رفض التسليم بالأحكام التي تتناول ظواهر المجتمع استنادا الى المشاهدات العارضة أو الآراء الشائعة أو المقيدة بالأحكام التقويمية (الذاتية).

ثانياً: الأساس الإيجابي:

يتمثل في استناد الباحثين في دراستهم للظواهر الاجتماعية الى قدر من الموضوعية والبعد عن الأحكام التقويمية ودراسة هذه الظواهر كما هي كائنة بالفعل وليس كما ينبغي أن تكون، والاستناد كذلك الى المشاهدات والمقارنات للوصول الى وصف تعميمي، وتفسيرات عامة للظواهر الاجتماعية.

بيد أن هناك عاملين أساسيين طرءا على الفكر الإنساني لهما دلالتهما في الأصول الفكرية لعلم الاجتماع، وذلك خلال القرنين (١٧م) و (١٨م) وهما :

١. **ظهور الفيزياء الاجتماعية**:

وهي حركة حاولت إقامة العلوم الاجتماعية على الأسس الميكانيكية والكمية نفسها التي تستند اليها ميكانيكا نيوتن. ذلك أنه قد ظهرت خلال هذين القرنين حركة فكرية تحاول وضع علم كمي له من الفروع ما يتناول الظواهر النفسية والأخلاقية والاجتماعية. وكان المبرر لهذه الحركة هو الاعتقاد بان القياس وحده هو الذي يكشف عن القضايا الصادقة. وقد ظهرت في اطار هذه الحركة الفكرية الملامح الأساسية للفيزياء الاجتماعية التي تضع تصميما لدراسة الظواهر الاجتماعية على هدى من منطق ومنهج الميكانيكا الفيزيائية والهندسية، والتي تستخدم في وصفها وتفسيرها لهذه الظواهر المفهومات والنظريات نفسها المستخدمة في هذين العِلمَين.

٢. **عوامل التغير الاجتماعي والثقافي:**

تعتبر دراسة الباحث الإيطالي فيكو(١٦٦٨-١٧٤٤م) بعنوان « العلم الجديد» من أهم الدراسات تأثيرا في تاريخ علم الاجتماع. ذلك أنها أول بحث منظم يتناول عوامل التغير الاجتماعي والثقافي.

ولقد تتابعت الدراسات خلال القرن(١٨م) وأول القرن(١٩م) مستندة الى الدراسات الإحصائية الرياضية للسكان، تلك الظاهرة التي وصلت دراستها الى مستوى دقيق على يد مالتوس.

هذا الوقت نفسه الذي تابع فيه رجال الاقتصاد والسياسة دراساتهم لتشمل المشكلات الرئيسية للمجتمع ولثقافته، ولتحدد القوانين التي تخضع لها ظواهر المجتمع، ولتناقش مشكلات المجتمعين الريفي والحضري.

ولقد تحققت خلال هذه الفترة دراسات لها أهميتها في تاريخ علم الاجتماع منها:

١. دراسة مونتسكيو « روح القوانين » التي تعد أول دراسة منظمة في سوسيولوجية القانون.

٢. دراسة آدم فرجسون التي وضع فيها كثيرا من مبادئ علم الاجتماع العام.

٣. دراسة دي ميستر في سوسيولوجية الثورات.

٤. دراسة آدم سميث في الجوانب الاجتماعية لثورة الأمم التي أسهمت في إيضاح وجهة نظر علم الاجتماع في دراسة الظواهر الاقتصادية.

٥. دراسات كل من « ترجو، وكوندرسيه، وسان سيمون، وهيجل » التي وضعت أساس نظريات التطور الاجتماعي والثقافي، وغير ذلك من الدراسات التي قام بها هربرت سبنسر وسمنر وغيرهما، ولقد ظهرت في هذه الفترة المجلدات الستة التي كتبها أوجست كونت (١٧٩٨-١٨٥٨م) عن الفلسفة الوضعية، حيث اكتسب علم الاجتماع اسمه كعلم مستقل ومحدد. ولقد عرّف « كونت » هذا العلم بانه علم تعميمي يتناول البناء

البناء الاجتماعي والتطور الاجتماعي، مُقسِّماً هذا العلم الى قسمين:

١- الاستاتيكا الاجتماعية : التي تتناول المجتمع في حالة استقراره.

٢- الديناميكا الاجتماعية: التي تتناول المجتمع في حالة تغير وتطوره.

ولقد حدث في الثلث الثاني من القرن(١٩م) تقدم ملحوظ في علم الاجتماع بفضل التحديات التي واجهت الآراء السائدة في الفكر الاجتماعي. وقد ظهر في هذه الفترة اتجاهان أساسيان في علم الاجتماع، يشكل كل منهما صورة للتغير الاجتماعي.

أولاً: الصورة الأولى: تحاول تفسير الظواهر الاجتماعية تفسيرا يردها الى عوامل البيئة الجغرافية والمناخية، والعوامل البيولوجية، والعوامل النفسية ولقد ظهرت في إطار هذا الاتجاه المدارس الاجتماعية التالية:

المدرسة الجغرافية: التي تفسر الظواهر الاجتماعية في ضوء العوامل الجغرافية كالمناخ والموقع والتضاريس. وقد ظهرت في إطارها محاولات لربط العوامل

الجغرافية بالظواهر الاجتماعية المختلفة: كتوزيع السكان وخواصهم وكثافتهم وحجمهم، بالظواهر الاقتصادية، كالظواهر الدينية والتنظيمات السياسية والعسكرية والجريمة.

المدرسة البيولوجية: التي تربط بين الظواهر الاجتماعية وبين الظواهر البيولوجية. وتقيم دراستها للمجتمع على أساس المماثلة بينه وبين الكائن الحي من حيث البناء والعمليات وفي إطار هذه المحاولات تم الربط بين العوامل البيولوجية المختلفة كالتكوين البيولوجي والسلالة والوراثة، وبين الظواهر الاجتماعية في مختلف مساراتها سواء كانت السلوك الاجتماعي للفرد، أو سلوك الجماعات الصغيرة، أو سلوك المجتمعات، أو سلوك المجتمع الإنساني ككل.

المدرسة النفسية: وهي مدرسة ترد الظواهر الاجتماعية إلى العوامل النفسية كالغرائز والرغبات والانفعالات والدوافع والاتجاهات، وتربط بين تلك العوامل وما يحدث في الواقع الاجتماعي من ظواهر وعمليات.

ولقد حقق هذا الاتجاه النفسي بعض الأهداف التي يتطلبها استخدام المنهج العلمي في دراسة الواقع الاجتماعي، ولكن الأدوات التصورية والمفهومات والمصطلحات التي استخدِمت لم تكن قادرة على أن تصل إلى تعميمات شاملة تفسر الظواهر الاجتماعية.

ثانياً: الصورة الثانية : ظهرت في منتصف القرن(١٩م) بظهور أوجست كونت، ومن الممكن أن نلمح في هذا الاتجاه صفتين واضحتين:

١. التحرر من مفهومات العلوم الطبيعية والبيولوجية: عند دراسة الظواهر الاجتماعية، ووصف هذه الظواهر في إطار المجتمع والثقافة والجماعة والقيم الاجتماعية، دون ردها إلى عوامل جغرافية أو بيولوجية أو نفسية كما في الاتجاه الأول.

٢. رد كل العلوم الاجتماعية إلى علم اجتماعي واسع الهدف: حيث تبِع هذا التحرر من . محاولات كل العلوم الاجتماعية إلى علم اجتماعي واسع الهدف يتمثل في

علم الاجتماع أو الفيزياء الاجتماعية Physical Sociology . ولقد ظهر ذلك عند الرواد من أصحاب النظريات الاجتماعية مثل : أوجست كونت، وهربرت سبنسر، وماركس،..الخ.

ولقد نظر هؤلاء إلى علم الاجتماع على أنه محاولة فكرية تؤلف بين الحقائق والتعميمات التي تقدمها العلوم الاجتماعية المتخصصة، ومن هنا أصبحت اهتمامات الباحثين اهتمامات موسوعية، وفي هذا إغفال للموضوع المميز الذي ينبغي لعلم الاجتماع ان يجده لنفسه متخذاً إيّاه مجالا للدراسة.

الواقع أن الصورة الأولى تمثل اتجاها ردِّيّا ، لأنها ترد الظاهرة الاجتماعية الى عوامل غير اجتماعية مغفلة طبيعتها الاجتماعية المميزة لها، وهي تكشف عن تعدد التفسيرات وتناقضها مما يظهر علم الاجتماع في صورة العلم القاصر غير المكتمل. كما أن الصورة الثانية تمثل اتجاها موسوعيا يتعذر في ضوئه تحديد مجال أصيل تدور حوله دراسات علم الاجتماع.

ولهذا سعت الاتجاهات المعاصرة في علم الاجتماع الى مواجهة هذه الجوانب القاصرة بما يلي:-

١. القيام بوضع التفسيرات للظواهر الاجتماعية التي تتناسب مع طابعها الاجتماعي ولا تردها الى العوامل غير الاجتماعية، ومن أبرز هذه المحاولات ما قام به إميل دوركايم.

٢. القيام بمحاولات لاستكمال التفسيرات المتعددة للظواهر الاجتماعية، ومحاولة إيجاد التكامل النظري في علم الاجتماع، ومن أبرز هذه المحاولات محاولة سوروكين وباسونز وغيرهما.

٣. تحديد علم الاجتماع في ضوء وجهة نظر يأخذ بها العلم تستند الى الرؤية الكلية للمجتمع، وما يترتب على ذلك من تساند ظواهره كما تستند الى الكشف عن الخواص المشتركة بين الظواهر الاجتماعية وبين فئة خاصة منها.

ولقد وضعت منذ عام ١٩٢٠م تفرقة بين كل ما هو اجتماعي يتناول ظواهر الواقع الاجتماعي، كالظواهر الأسرية والاقتصادية والسياسية والقانونية... الخ. وما هو سوسيولوجي ينتسب الى علم الاجتماع، ويتحدد بمقياس الرؤية الخاصة لعلم الاجتماع التي تكشف عن كلية المجتمع، وكيفية أدائها لوظائفه، وتحدد وحداته الأساسية، وتظهر الكيفية التي تترابط بمقتضاها هذه الوحدات وتتساند لتقابل الحاجات الاجتماعية المتعددة، وتكشف عن العمليات المعززة للاستقرار الاجتماعي أو المهددة لهذا الاستقرار، وتشير الى انطواء الأفراد في إطار البناءات الاجتماعية.

ومن هنا ظهرت مفهومات علم الاجتماع : كالمجتمع والجماعة والنظم والعمليات والوظائف والبناء الاجتماعي والتفاعل وتقسيم العمل والتدرج والضبط والتغير ، وبحث الظواهر الاجتماعية المختلفة في ضوء هذه المفهومات الأساسية.

الاتجاهات المعاصرة

اتخذ علم الاجتماع وضعاً أكاديميا مستقرا، حيث أنشئت أقسام لدراسة هذا العلم في أغلب الجامعات الكبرى في العالم، وظهرت الكتب والدوريات المتخصصة وأسهم الباحثون في علم الاجتماع بخبرتهم في مجالات تطبيقية متعددة كمجالات التخطيط والتنمية والخدمة الاجتماعية، وقاموا ببحوث واقعية لدراسة مشكلات مجتمعهم.

ولقد برزت وجهة نظر علم الاجتماع التي تدعو الى الرؤية الكلية للمجتمع، والى ربط الظواهر الاجتماعية ببعضها، والى الكشف عن الخصائص العامة المشتركة بين كل فئات هذه الظواهر، أو الخصائص المشتركة بين فئة منها، وقد أثّرت هذه الوجهة من النشاط في كثير من العلوم. فظهرت دراسات تتناول الظواهر التاريخية والاقتصادية والدينية والفنية والإدارية والأخلاقية واللغوية بوجهة نظر علم الاجتماع.

ولقد أسهم الباحثون في هذا العلم في تقدم عناصر البناء المنهجي للبحث الاجتماعي، فاتجهت الطرق العامة للبحث الاجتماعي وأدواته وأساليبه، لتحقق الدقة والموضوعية في مراحل التصور الاجتماعي للظاهرة الاجتماعية ، مشاهدة الظواهر الاجتماعية، وفي التعبير عن نتائج هذه المشاهدة. واتجهت الدراسات الى البحوث الاجتماعية الميدانية دون أن تقتصر على التأملات النظرية.

ولقد سعى الباحثون في هذا العلم الى إيجاد التكامل النظري في علمهم وإزالة التفسيرات المتناقضة للظواهر الاجتماعية، واستكمال صورة التفسير ليبدو شاملا لتلك الظواهر، أو لفئة منها. وهنا ظهرت النظريات المتكاملة عند سوروكين وبارسونز وغيرهما.

مراحل التصور الاجتماعي للظاهرة الاجتماعية

١. مرحلة الفلسفة الاجتماعية:

وتضم هذه المرحلة النظريات التقويمية (الذاتية) التي تحدد وجهة نظر الفيلسوف الاجتماعي في أصلح أشكال المجتمعات أو النظم الاجتماعية والسياسية والقانونية والاقتصادية وأنسب صور العلاقات والتفاعلات الاجتماعية.

ومن أمثلتها النظريات الاجتماعية لكل من أفلاطون وروسو وهيجل وسبنسر وسان سيمون. وقد سادت الفلسفة الاجتماعية في الفكر الأوربي من القرن(١٧م) حتى منتصف القرن(١٩م).

٢. مرحلة النظريات الاجتماعية:

سعت هذه المرحلة الى تحقيق الموضوعية والطابع العلمي (الوضعي) في تفسير الظواهر الاجتماعية. ولقد تشكلت النظريات في هذه المرحلة في صورة أساسية:

أ- **النظريات الرديّة:** التي تفسر الظواهر الاجتماعية بردها الى عوامل وظروف غير اجتماعية كالعوامل الجغرافية أو البيولوجية ... الخ.

ب- **النظريات الأحادية:** والتي استندت الى الأهداف العلمية نفسها ولكنها أقامت التفسير للظواهر الاجتماعية على أنها نتاج لمتغيرات وعمليات اجتماعية. وقد رأى أنصار الأحادية أن نمطا واحدا من العمليات والصور الاجتماعية يمكن أن يستند إليها الصور الأساسية للنظريات العامة

تفسير نطاق واسع من الظواهر الاجتماعية، ومن أمثلة ذلك:

تارد في نظريته عن « المحاكاة ».

سبنسر في نظريته عن « التباين».

ماركس في نظريته عن « نمط الإنتاج والاقتصاد ».

الصور الأساسية للنظريات العامة

يمكن تحديد الصور الأساسية التالية للنظريات الاجتماعية:

١. نظريات اختزالية تحدد الاتجاه الذي سارت عليه الظواهر الاجتماعية في نشأتها ونموها وتغيرها. ومن أمثلة هذه النظريات نظرية هربرت سبنسر في حركة التطور الاجتماعي من مرحلة المجتمعات المتجانسة الى مرحلة المجتمعات غير المتجانسة. ونظرية العالِم الألماني تونيز في حركة التغير في العلاقات الاجتماعية من طابع المجتمع المحلي

الى طابع المجتمع العام. ونظرية تطور المجتمعات لدى دوركايم من مرحلة يسودها التضامن الآلي في المجتمع الى مرحلة يسودها التضامن العضوي.

بالإضافة الى نظريات زيميل وسوروكين ورودفيلد ..، وغيرهم في التطور الاجتماعي.

٢. نظريات أحادية تستند في تفسيرها لنشأة الظواهر الاجتماعية الى سبب واحد أساسي يصور حالة اجتماعية شاملة يُرجع إليها هذه الظواهر ومن أمثلتها:

نظرية ماركس في نمط الإنتاج الاقتصادي والوضع الطبقي. ونظرية دوركايم في العقل الجمعي ونظرية جمبلوفتش في الصراع. ولقد وجد هؤلاء وغيرهم التفسير الشامل لنشأة الظواهر الاجتماعية في تلك الظروف الاجتماعية.

٣. نظريات تعكس تسلسل العمليات الاجتماعية في المجتمع ويهدف هذا النوع من النظريات الى تنظيم الظواهر الاجتماعية استنادا الى تركيز الاهتمام في عدد محدود من العمليات الاجتماعية التي تفسر وفق إطار محدد ومتكرر من التتابع الزمني. ومن

أمثلتها نظرية تادنر التي تحدد المسار الزمني المتتابع للظاهرة الاجتماعية في ضوء العمليات التالية: (الاختراع – المعارضة – المحاكاة – التلاؤم) ومن أمثلتها رأي بارسونز في تتابع تلك العمليات بمقتضى (الاتصال، والصراع، والتلاؤم والتمثيل).

المحاضرة (٤)
النظرية العضوية
(أوجست كونت)

المدرسة الوضعية(العلمية) والنظرية العضوية

المقاربة الوضعية هي: منهجية تحليلية تقوم على استبعاد لأنماط الفكر والتحليل اللاهوتي (الديني) والميتافيزيقي (التجريدي = الطبيعة) من أي تحليل اجتماعي. مقترحة بديلا عنهما الإنسان الذي بات يتمتع بقيمة مركزية في الكون. وقد كانت ممهّداتها مع المفكّر الفرنسي "سان سيمون" قبل أن تتّخذ طابعها المتكامل كنسق فكري مع تلميذه "أوجست كونت".

سان سيمون : ١٧٦٠- ١٨٢٥م

يؤكد سان سيمون على استعمال أدوات المعرفة الوضعية والعمل على القضاء على الهوة الفاصلة بين البعد النظري والبعد التطبيقي للوصول إلى وحدة المعرفة، هذا هو جوهر وفكرة الوضعية. لذا نجد (سان سيمون) يصر على استبدال المضمون القديم للمسيحية بمضمون جديد يعمل على تطويرها من الداخل

هذا المضمون الجديد يتمثل في كتابه " النظام الصناعي " من خلال:

التأكيد على سعيه إلى تكوين مجتمع حر.

التأكيد على نشر المبادئ والقيم التي ستكون أرضية النظام الجديد.

العناصر الأساسية التي اعتمدتها المقاربة الوضعية مع "سان سيمون" هي:

١. تحييد الدين والفكر اللاهوتي عن كل مشاركة في الحياة العملية.

٢. وضع أسس مشروع علمي وفكري ومعرفي **يقوم على مبدأين أساسين هما:**

مبدأ العلمية ؛ فلا تعامل بعد الآن مع الظواهر والأشياء إلا من منظور علمي.

مبدأ العلمنة وفيه تحييد صريح للدين.

هذه هي آليات التحليل العلمية التي ضمنها سان سيمون للمقاربة الوضعية وهي الآليات التي سنجدها مستعملة في نصوص "أوجست كونت" Auguste COMTE بطريقة أو بأخرى .

النظرية العضوية : أوجست كونت

يعد النموذج العضوي في النظرية الاجتماعية أقدم أشكالها، وثمة ظروف اجتماعية واقتصادية وفكرية أدت إلى ظهور وإرساء قواعد هذا النمط في النظرية الاجتماعية. وإذا ما قبلنا الراي القائل بأن النظرية الاجتماعية تعبر عن ردة فعل مجموعة من الاكاديميين وأهل العلم للمشكلات الاجتماعية اليومية، فإننا نقول أن المبادئ الأساسية للنموذج العضوي دعا اليها جماعة من مفكري الطبقة العليا، درسوا فلسفة عصر التنوير، وآمنوا بها وتفاعلوا مع البيئة الاجتماعية وعاشوا أحداث الثورة السياسية الفرنسية والانهيار الاجتماعي والتطور الصناعي بأوروبا.

وقد استفاد هؤلاء المفكرون من الادعاءات التي طرحها أنصار النزعة الطبيعية والنزعة العقلية والتطورية الاجتماعية والإصلاح الاجتماعي والمنهج الوضعي، وقدموا رؤية جديدة للمجتمع تركز على حاجات المجتمع ونظمه، ويؤدي هذا المجتمع وظائفه وفق القوانين الطبيعية. كما يفسر هذا المجتمع باعتباره نسقا يتكون من أجزاء مترابطة ويؤدي كل منها وظيفة من خلال تقسيم العمل أو بناء الأدوار، وهذه الرؤية تشبِّه المجتمع

بالكائن العضوي الذي يؤدي كل عضو من أعضائه وظيفة محددة، كما صور المجتمع وكأنه جزء من النظام الطبيعي يتكور تلقائيا وفق حاجاته الأساسية.

وقد أعطى أنصار المدخل العضوي اهتماما أساسيا بالبناء الميكانيكي الآلي للكائن الاجتماعي(مثلما فعل كونت وسبنسر) أو الى النسق المعياري الذي يعتمد على تقسيم العمل (حسب رؤية دوركايم وتونيز) وفي كلتا الحالتين نظر علماء الاجتماع الرواد الى المجتمع باعتباره نظاما متكاملا يؤدي كل عضو من أعضائه وظيفة من أجل استمرار الكل. وأن هذه المجتمع لا ينفصل عن النظام الطبيعي وأن تقسيم العمل هو أساس وجود المجتمع.

ويعبِّر النموذج العضوي عن رؤية شمولية تكاملية لتفسير الحاجات الطبيعية للمجتمع باعتبارها حاجات دائمة . كما يحمل طابعا إيديولوجيا محافظا لتأكيده على أهمية توافق الفرد مع هذه الحاجات بدلا من السعي الى تغييرها أو التمرد عليها.

وستفهم هذه الرؤية بشكل افضل عند إلقاء الضوء على جهود أبرز مفكري ذلك العصر. درسوا التفكك الاجتماعي والفوضى السياسية والانهيار الاقتصادي، وتنزع النماذج الشمولية الى الظهور في مثل تلك الفترات وخاصة بين أعضاء الصفوة، ويرى هؤلاء المفكرون أن الوظيفة الأساسية لعلم الاجتماع في مثل هذا الموقف هي اكتشاف القوانين الأساسية للنظام الاجتماعي من أجل فهمه فهما أفضل، ومن أجل السيطرة على أحداث هذا المجتمع بكفاءة أجدر.

فالمدخل العضوي باعتباره أقدم المداخل في النظرية الاجتماعية، تبناه مفكرو الطبقة العليا وتوحد مع تعاليم فلسفة التنوير استجابة للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت في عصرهم. وكانت النتيجة الأساسية لهذه العوامل ظهور نماذج في النظرية الاجتماعية تسعى الى التفسير الطبيعي والشمولي التكاملي للمجتمع. وقد انقسم انصار هذا التفسير الى اتجاهين أولهما يؤكد على الخصائص الآلية للمجتمع والثاني يؤكد على الخصائص المعيارية للمجتمع.

الظروف التي أدت إلى نشأة النظرية الاجتماعية

تعتبر النظرية الاجتماعية استجابة للظروف التي طرأت على المجتمعات الأوربية وقد ظهرت في أواخر القرن(١٩م) وبداية القرن (٢٠م) وذلك بعد الأحداث التي عصفت بالمجتمعات الأوربية في القرن الثامن عشر الميلادي وما قبله . ومن تلك الأحداث البارزة التالي:

١. **الثورة الصناعية:** التي ألقت الضوء على ظروف المعيشية وضرورة استخدام التكنولوجيا في المجال الزراعي لتحسين الظروف المعيشية.

٢.**الثورة الفرنسية** : التي رفعت شعارات بالمساواة والعدالة الاجتماعية وعملت على إلغاء الملكية المطلقة، والامتيازات الإقطاعية للطبقة الارستقراطية، والنفوذ الديني الكاثوليكي. ويمكن القول بأن المشكلات الاقتصادية والسياسية احتلت المقدمة في ظهور النظرية الاجتماعية الحديثة، وذلك للتأكيد على أهمية فهم المجتمع كوحدة للتحليل في ذاتها من أجل مصلحة المجتمع.

٣.**الثورة الدينية**: التي خرجت على الكنيسة ورجال الدين الذين مارسوا القهر والتسلط الفكري وأقاموا محاكم التفتيش لإعدام كل من يخرج من المفكرين والعلماء على أفكار الكنيسة وتفسيرات رجال الدين للكون والحياة.

٤.**الثورة الفكرية:** تأثرت النظرية الاجتماعية ببعض الأفكار مثل:

•**فلسفة عصر التنوير:** تلك الفلسفة التي قامت بالدفاع عن العقلانية ومبادئها كوسائل لتأسيس النظام الشرعي للأخلاق والمعرفة بدلا عن الدين ومن هنا نجد أن ذلك العصر هو بداية ظهور الأفكار المتعلقة بتطبيق العلمانية والمنهج العلمي عند دراسة المجتمع، والتطور والتحديث وترك التقاليد الدينية والثقافية القديمة "نقد"والأفكار اللاعقلانية ضمن فترة زمنية دعوها "بالعصور المظلمة".

•**النزعة التطورية"دارون"** والتي سيطرت على تفكير كثير من علماء الاجتماع الأوائل ، الذين كانوا يتصورون أن الإنسان والمجتمع يتقدمان عبر خطوات محددة للتطور تنتهي إلى أعقد المراحل وأكملها.

•كما تأثرت النظرية الاجتماعية في نشأتها بالنزعة الطبيعية العضوية والعقلانية والفلسفة البراجماتية.

نمط النزعة الطبيعية في النموذج العضوي

يعتبر (أوجست كونت وسبنسر) أفضل مثالين لهذا النمط من النظرية الاجتماعية. لذا من الضروري أن نعرض للظروف الاجتماعية والسياسية التي عاشها كل منهما.

أوجست كونت: ١٧٩٨- ١٨٥٧م

وُلِد في فرنسا وهو ابن عائلة كاثوليكية تؤمن بالنظام الملكي، ودرس الطب وعلم وظائف الأعضاء في معهد البولو تكنيك، ثم القى دروس في الفلسفة الوضعية في مرحلة متأخرة، كما وضع قواعد المنهج الذي يقوم عليه المجتمع الوضعي، تعلم في بداية حياته مبادئ وأفكار التنوير، وعاش الثورة الصناعية والصراع المتزايد بين الدين والعلم. وكانت أهم أعماله الأساسية دروس في الفلسفة الوضعية. وترجع شهرة كونت الى كونه أول من صاغ مصطلح " علم الاجتماع" Sociologyبالغات الأوربية.

يعتبر كونت مثالا واضحا للتفسير الآلي في النظرية العضوية في علم الاجتماع. وبتأثير المناخ الفكري في فرنسا في بداية القرن(١٩م)والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية حينئذ، قدّم نموذجا محافظا متأثرا بالنزعة الطبيعية عن الحقيقة الاجتماعية يقوم على افتراضات طبيعية وحتمية عن الظواهر الاجتماعية.

وقد أثرت أوضاع وظروف البيئة الاجتماعية التي عاشها كوت في تحديده لمهمة علم الاجتماع. إذ يرى كونت أن الهدف الأساسي لعلم الاجتماع هو رفض التفسير الثوري للمجتمع الحديث(إذ يرى كونت أن الثورة ليست وسيلة لبناء المجتمع، بل انهيار خُلُقي) ولذا اهتم كونت بكيفية إعادة تنظيم المجتمع بالاستفادة من الفلسفة الوضعية.

ولما كان أوجست كونت يرى بأن الأساس الذي يقوم عليه المجتمع هو: مجموعة من الأفكار الأساسية السائدة في هذا المجتمع، فإن وظيفة علم الاجتماع عنده هي الاهتمام بترسيخ هذه الأفكار التي تدعم النظام الأخلاقي. وترتب على ذلك محاولة كونت اكتشاف شكل" للفيزياء الاجتماعية" يستطيع أن يرسي بها القوانين الاجتماعية ويعيد التنظيم والنظام الاجتماعي للمجتمع وفقا لنسق من القيم الذي أعطاه كونت قيمة كبرى، ورأى أنه النسق الأكثر تمشيا مع الطبيعة ولذا يمكن القول بأن كونت حاول تطبيق مبادئ فلسفة عصر التنوير على مشكلات الثورة في عصره. وقدّم لنا نظرية عن التطور الاجتماعي أوضحت الأهمية الأساسية للعقل والقيم الاجتماعية المهيمنة.

ومن ثم نرى أن كونت كان يأمل من علم الاجتماع- ذلك العلم الجديد- إعادة إرساء نظام أخلاقي جديد يقضي على ما هو سائد حوله من مظاهر الفوضى الاجتماعية.

الافتراضات الأساسية عند أوجست كونت:

يمكن تلخيص الافتراضات الأساسية لعلم الاجتماع عند كونت على النحو التالي:

١) يرى (أوجست كونت) أن ثمة مجموعة من القوانين الطبيعية اللآمرئية - الخفية – تنظم الكون، وتقف وراء تطور ونمو العقل أو المعرفة أو القيم الاجتماعية السائدة.

٢) أدرك كونت أن عملية التطور تتحقق في ثلاثة أطوار كبرى- **قانون المراحل الثلاث** -:

المرحلة الغيبية: التي تتميز بتقصي الأسباب الغيبية خلال قوى خارقة للطبيعة.

المرحلة الميتافيزيقية: وتتميز بالفكر المجرد والبحث عن العلل المجردة.

المرحلة الوضعية(العلمية): وتتميز بنمو المعرفة النسبية، ودراسة القوانين التي تحكم الظواهر. وفي تلك المرحلة يسمح المنهج الوضعي لعالِم الاجتماع اكتشاف وفهم القوانين الطبيعية التي تحكم الظواهر الاجتماعية. وهذا يؤدي به الى اكتشاف وفهم القوانين الطبيعية التي تحكم الظواهر الاجتماعية. وهذا بدوره يؤدي به الى اكتشاف وحدةً فكريةً ونظاماً أخلاقيا يوحِّد بين التقدم والنظام مقابل مواقف الفوضى السائدة، ومن ثَمَّ يصبح علم الاجتماع علما متكاملا موحدا يعتمد على المنهج الوضعي (العلمي) ويساهم مباسرة في تطور النظام الأخلاقي الطبيعي.

٣) وتبعا لذلك، رأى كونت أن جميع جوانب المعرفة هي جوانب اجتماعية بقدر ما تعكس وتمثل هذه المعرفة البيئة الاجتماعية التي تظهر فيها، وكل طور من أطوار المعرفة

يرتبط بمرحلة معينة من مراحل التطور الثلاث، ويعبر عن بيئة اجتماعية لها ملامحها المتميزة.

٤) قسم كونت النسق الاجتماعي(المجتمع) الى جزئين أساسيين:

١- الاستاتيكا الاجتماعية: ويتكون من الطبيعة الاجتماعية الإنسانية وقوانين الوجود الاجتماعي للإنسان.

٢- الديناميكا الاجتماعية: أو قوانين التطور التغير الاجتماعي

٥) يتضمن النسق الاجتماعي ثلاثة أنماط أساسية كبرى من الغرائز:

* غرائز المحافظة على النوع(الغريزة الجنسية والحاجات المادية).

* غرائز تحسين الأوضاع(العسكرية والتصنيع).

* الغرائز الاجتماعية : (الترابط والاحترام والحب الشامل).وتقع وسطا بين غرائز المحافظة والتقدم وغرائز الغرور والتفاخر.

ويبدو التقدم الاجتماعي واضحا في سيطرة الغرائز الاجتماعية – على غرائز المحافظة على النوع وغرائز تحسين الأوضاع- كما أن التفاعل بين العناصر للاهوتية والعناصر العسكرية ينجم عنها التحول الى الطريقة الوضعية في التفكير. وقد ساعد على هذا التطور ظهور مشكلات إنسانية أو الإخفاق المستمر للإنسان والإحباطات الإنسانية أثناء تقدم النسق الحتمي خلال المراحل الثلاث للتطور الفكري.

وثمّة عوامل أخرى ساهمت على التقدم، منها الضيق والضجر أو الملل السائد بين المواطنين، إذ أفضى الضيق والملل الى بذ الجهود نحو التجديد. أيضا يساهم متوسط الأعمار السائد ومعدل نمو السكان ومعدل التطور الفكري في المجتمع ككل في إحداث التقدم. فكل هذه العوامل تساهم في تطور الغرائز من الشكل البدائي الى مرحلة أرقى أثناء تتابع عملية التمدُّن والتحضّر.

٦) أخيراً افتراض كونت نوعا من اليوتوبيا (الخيال) السوسيولوجي، عندما افترض في نهاية التطور الاجتماعي إمكانية سيطرة الوضعية على النظام الاجتماعي باعتبارها دين الإنسانية، وهذا الافتراض يصور المجتمع في المرحلة الوضعية المتطرفة، التي تحقق فيها الوحدة الحيوية بين العقل والنظام الاجتماعي، ويأخذ كل جزء من أجزاء البناء الاجتماعي طابعا وضعيا في تلك المرحلة. وعند هذه النقطة بدأ كونت في مناقشة المساهمة التي تقدمها أنظمة التعليم والتربية والفن في تحقيق التطور نحو الحب والخير استنادا على مبادئ الفلسفة الوضعية.

وموجز القول أن كونت رأى

١- الكون نظاما تحكمه قوانين طبيعية.
٢- وان هذه القوانين تظهر بصورة جلية في المجتمع في شكل العلاقات المتبادلة بين الغرائز الإنسانية والفكر أو القيم الاجتماعية السائدة، وذلك في سياق بناء المجتمع الاستاتيكي والديناميكي.
٣- يتطور النسق الاجتماعي(المجتمع)في مجموعة من خلال ثلاث أطوار من تطور الفكر نحو المرحلة الوضعية وهي المحلة المتكاملة أخلاقيا.
٤- مهمة علم الاجتماع بصفته علما وضعيا هي دراسة هذا النسق ووصفه وصفا تفصيليا يساهم في إيجاد الحل العلمي للمشكلات الاجتماعية.

المنهج

وتبعا لرؤية كونت فإن المنهج الوضعي(العلمي) يقود الى ظهور الحقيقة العضوية أو الحقيقة الأساسية، وهذا يعني ضرورة الاستفادة من إجراءات **الملاحظة والتجربة والمقارنة** لفهم تفاصيل الاستاتيكا الاجتماعية والديناميكا الاجتماعية، ويسمح هذا المنهج بتجريد القوانين الاجتماعية نتيجة التجريب المباشر واللامباشر وتفاصيل التطور العام للمجتمع ووفق هذه الطريقة رأى كونت الوضعية منهجا يقود الى إيضاح أبين لنموذجه النظرية الذي يقوم على افتراضات ذات نزعة طبيعية وعضوية.

نمط المجتمع:

قسم كونت نموذجه لدراسة المجتمع الى جزئين أساسيين : هما: الاستاتيكا الاجتماعية والديناميكا الاجتماعية اللتان تصوران البناء التنظيمي للمجتمع ومبادئ التغير الاجتماعي لهذا المجتمع. فالاستاتيكا تشمل الطبيعة الاجتماعية (الدين والفن والأسرة والملكية والتنظيم الاجتماعي) والطبيعة البشرية(الغرائز والعواطف والفعل والذكاء)، بينما تشمل الديناميكا الاجتماعية قوانين التغير الاجتماعي والعوامل المرتبطة به(مستوى الضجر والملل وطريقة الحياة ونمو السكان ومستوى التطور الاجتماعي والفكري). ورأى كونت أن هذا البناء ككل يتقدم خلال مراحل ثلاث نحو المرحلة الوضعية.

القضايا الأساسية :

١) أثار مدخل كونت قضية مؤداها الى أي مدى تعد أهداف علم الاجتماع نظرية أو عملية تطبيقية، أو أن أهداف علم الاجتماع تجمع بين التنظير والتطبيق خاصة خلال السياق الإمبيريقي المعاصر.

٢) أثارت افتراضات كونت الأساسية قضايا هامة عن التفسيرات الطبيعية(أي مدى ملائمة الغرائز) والنماذج الحتمية لتفسير التطور الاجتماعي، وتصورات المجتمع في اطار نسق القيم السائدة أو رؤية الحقيقة وتقسيم المجتمع الى الاستاتيكا والديناميكا ، وهما مفهومان مهّدا لظهور مفهومي البناء والعملية.

٣) يمثل منهجه الوضعي الأساس الأول والرائد للمنهج العلمي المعاصر.

٤) يحدد نموذجه في تقسيم المجتمع الى استاتيكا وديناميكا اجتماعية العمليات والعناصر الأساسية داخل النسق وبذلك يكون فكر كونت رائدا لأعمال لاحقة لمنظري البنائية الوظيفية ومدخل الصراع.

ويتبين من عرض أفكار كونت أنه قدم نموذجا طبيعيا للنظام الاجتماعي هو نسق اجتماعي يعمل بطريقة ديناميكية من أجل التقدم الى أطوار معينة محددة مسبقا، وتقدم هذه النظرية الطبيعية التطورية الأساس الذي تقوم عليه النظرية الاجتماعية العلمية كما سنرى لاحقا، وينبغي أن ينظر إليها باعتبارها قاعدة أساسية للنموذج الاجتماعي العلمي للحقيقة الاجتماعية . كما أن آراء كونت ليست بسيطة بل تمثل القاعدة التي قام عليها كل من علم الاجتماع والنظرية الاجتماعية، بحيث تضمن عناصر أساسية بقيت صالحة وملائمة مع موضوعات العلم الاجتماعي المعاصر.

المحاضرة (٥)
النمط الشمولي المتكامل في النظرية العضوية
«دوركايم»

النمط الشمولي المعياري المتكامل في النظرية العضوية

على نقيض النزعات العضوية المتطرفة في التفسير الطبيعي والميكانيكي للمجتمع أكد دوركايم وتونيز على أهمية البعد المعياري أو البعد الاجتماعي في تفسير المجتمع كنسق اجتماعي، ورغم أنهما لا يختلفان عن كونت وسبنسر فإن تفسيراتهما تبتعد عن التفسير الآلي الصارم للمجتمع، وتقترب بقوة من التفسير الاجتماعي العلمي.

إميل دوركايم:١٨٥٨-١٩١٧م

وُلد دوركايم في فرنسا، وهو ابن عائلة يهودية، تعلّم القانون والفلسفة الوضعية، ودرَّسها في الجامعة، تربّى في حضن أفكار عصر التنوير وعاش أيام الثورة السياسية في فرنسا والتفكك الاجتماعي. اهتم بفكرة الإرادة العامة(الضمير الجمعي) والتماسك الاجتماعي، وترتب على ذلك تصوره للمجتمع في اطار المعايير أو أشكال التكامل الاجتماعي(أي انه تصوّر المجتمع حسب الطريقة التي يرتبط بها الفرد ارتباطا اجتماعيا مع البناء الاجتماعي من خلال الحقائق الاجتماعية) وكانت فكرة التماسك الاجتماعي لعناصر المجتمع احدى اهتماماته الأساسية.

الأهداف:

اهتم دوركايم اهتماما أساسيا بفهم الظواهر الاجتماعية وتأثيرها على ظهور المشكلات الاجتماعية. وكان ذلك الاهتمام مناقضا ومعارضا للتفسيرات الفردية والنفسية التي طرحت في ذلك الوقت. وقد رأى دوركايم أن علم الاجتماع يهتم بالظواهر الاجتماعية والالتزامات الأخلاقية الجمعية، وخاصة تلك الظواهر التي تقهر الفرد وتلزمه على أن يسلك سلوكا معيناً داخل الجماعة، وهكذا فعلى النقيض من التفسيرات النفسية التي تهتم بالحالات الداخلية والتي سيطرت على المناخ الفكري في تلك الفترة، قدّم دوركايم اطار عملٍ سوسيولوجيٍ يهتم بالظواهر الموجودة في الخارج مثلما عرض منهجا لدراسة هذه المعطيات الاجتماعية.

وكان هذا المنهج الاجتماعي وهذا التفسير للظواهر الاجتماعية هو المساهمة الكبرى من دوركايم في تأسيس وتطوير علم الاجتماع باعتباره علما جديدا متميزا يركز على المجتمع كظاهرة حقيقية لها وجود مستقل، وقد أعطى دوركايم اهتماما لكل مظاهر المجتمع، وهي:

(القانون والأخلاق وأساليب الضبط والبناء السياسي والاقتصادي والدين والجريمة).

الافتراضات:

١. بدأ دوركايم بافتراض هام مؤدّاه(أن المجتمع بوصفه ضميراً جمعيا – شعورا جمعيا، تمثلات جمعية – له وجود مستقل ، وقد قصد دوركايم - كما فعل سبنسر – توضيح أن المجتمع ككل يختلف عن مجموع أجزائه. فالمجتمع كلٌ عضوي جمعي يختلف عن مجموع الأجزاء، ويعمل أساسا من خلال ممارسة أساليب القهر التي يفرضها على البناء المعياري للمجتمع.

٢. ويترتب على ذلك أن الوقائع الاجتماعية (الظواهر الاجتماعية) هي وقائع حقيقية، كما يتجلى ذلك في قوة القهر التي تمارسها المعايير والأبنية التنظيمية، وتبعا لذلك اهتم دوركايم اهتماما أساسيا بواقعية المعايير وما تمارسه من قوة قهر والزام.

٣. تعتمد القوة الاجتماعية على العقل الجمعي(الضمير الجمعي) أي تعتمد على الاشكال المختلفة للسيطرة والقهر والإلزام على بناء المعايير السائد خلال جماعة ما، عندما يمارس الضبط الاجتماعي على أعضاء الجماعة من خلال هذه المعايير، وعلى العموم فإن كل مظاهر البناء الاجتماعي، بما في ذلك نظمه تقوم على نسق معايير المجتمع.

٤. بيّن دوركايم أن تطور وقائع المجتمع أو الظواهر السائدة فيه يعتمد على الحاجات الأساسية لذلك المجتمع ، وبهذه الكيفية تمثل الظواهر الاجتماعية الحاجات الاجتماعية موضوع يجب أن يدرسه علماء الاجتماع بعمق، وقد سبق دوركايم في هذا المدخل البنائي الوظيفي المعاصر في توضيح هذه الارتباط.

٥. وقد طرح دوركايم فرضا أساسيا ثانيا مؤداه (أن التماسك الاجتماعي يعتمد على تقسيم العمل في المجتمع) أي كلما تزايد التماثل في مظاهر تقسيم العمل كلما كان بناء الأدوار اقل تعقيدا، ارتفع مستوى التماسك الاجتماعي.

٦. استنادا الى هذا الفرض، بين دوركايم أن ثمة رابطة منطقية بين بين حجم المجتمع والكثافة الاجتماعية من جانب ومستوى تقسيم العمل والتماسك الاجتماعي من جانب آخر

(أي كلما زاد عدد السكان وارتفعت الكثافة الاجتماعية، ترتب على ذلك زيادة في تقسيم العمل، وضعف التماسك الاجتماعي).

٧. وعلاوة على ذلك أدرك دوركايم أن هناك شكلين أساسيين كبيرين للتماسك الاجتماعي(التضامن الاجتماعي) الأول: التماسك الآلي، والثاني التماسك العضوي.

- **والتماسك الآلي:** خاصية من خصائص المجتمعات التقليدية التي يتضاءل فيها تقسيم العمل، وتمارِس فيها المعايير الاجتماعية قوة ضاغطة على الأفراد كما يظهر فيها مستوى عالٍ من التماسك الاجتماعي، بسبب التماثل في المعايير والتقاليد والمعتقدات وتقارب الآراء والطموحات.

- **أما التماسك العضوي:** فخاصية المجتمعات الحضرية والصناعية الأكثر تقدما، والتي تتميز بتعقد نظام تقسيم العمل، وشيوع علاقات تقوم على التعاقد وانخفاض مستويات التكامل وندرة مظاهر التماسك والتضامن. وفي مثل هذا البناء(المجتمع) تضعف قوة

أساليب الضبط التي تمارّس قهرها وضغطها على الأفراد، مما يؤدي الى ارتفاع معدلات الانحراف والجريمة نتيجة ضعف الروابط بين الأفراد والبناء الاجتماعي(المجتمع)، ويصبح البناء الاجتماعي غير قادر على تنظيم العلاقات تنظيما ملائماً.

٨. وأخيرا افترض أن الجريمة وأشكال الانحراف الأخرى تؤدي وظيفة في المجتمع بقدر ماهي تدعم معايير الجماعة، وبقدر ما تساهم في التغيير المستمر بتعديل معايير الجماعة.

ومجمل القول يرى دوركايم أن المجتمع وحدة عضوية معيارية تمثل الحاجات الأساسية للمجتمع، واذا كبر هذا النسق وزاد عدد السكان وازدادت الكثافة الاجتماعية وتعقد تقسيم العمل يتحرك (يتحول) المجتمع من التماسك الآلي الى التماسك العضوي. والمشكلة في العملية الناجمة عن ذلك هي إعادة تكامل الأفراد وبيئتهم الاجتماعية، أي تطوير الوحدة الأخلاقية بعد حالات التفكك الاجتماعي.

ويقترح دوركايم أن إعادة هذا التكامل تتطلب: الاستفادة من التعليم والتربية والدعوة الى تربية أخلاقية جديدة تتجاوز اهتمامات الفرد وتتيح رابطة أخلاقية متجانسة مع المجتمع. وكما فعل كونت وسبنسر اهتم دوركايم بالمظاهر العملية للتجانس الاجتماعي.

المنهج:

يعد كتاب " قواعد المنهج في علم الاجتماع " أشهر مؤلفات دوركايم على الإطلاق. ويوضح فيه أن الحقائق الاجتماعية أشياء تقتضي دراسة موضوعية - أي يمكن قياس الحقائق الاجتماعية – أو الظواهر الاجتماعية.

واهتم دوركايم في كتابه السابق بدراسة المؤشرات التي تبرز العقل الجمعي، ويحاول علم الاجتماع أن يحدد الحاجات الاجتماعية الأساسية التي تمثلها هذه المؤشرات. كما ينبغي أن يستفيد علم الاجتماع من طريقة التغير المتلازم التي قال بها(جون سيتورات ميل) بمعنى: ارتباط التفسير الذي يحدث في ظاهرة ما بتغير آخر يطرأ على ظاهرة أخرى أو أكثر.

وكما أكد دوركايم أهمية دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة موضوعية، أوضح أهمية التجريب والمنهج المقارن، كما أعطى اهتماما خاصا لتغير الحقائق الاجتماعية خلال الزمان، ويساعدنا هذا المنهج على تجريد (استخلاص) قوانين علمية تهتم بكيفية أداء الظواهر الاجتماعية لوظائفها ونشأتها وتطورها.

نمط المجتمع:

نمط المجتمع عند دوركايم يقوم على صورة التماسك الاجتماعي السائد في مجتمع ما، وثمة مجتمع يسوده **التماسك الآلي** وانخفاض في معدل تقسيم العمل، وينتشر فيه نمط ثقافة تقليدية متجانسة، ومعايير تمارس قوة القهر والملكية المشاعة والديانات الوثنية والانتحار الغيري(الإيثاري) أي الموت من أجل الجماعة.

أما التماسك العضوي فيسود في مجتمع يتميز بتعقد نظام تقسيم العمل المصاحب لعصر التصنيع، وتزايد الفردية ومعايير الثواب والعقاب، والعلاقات التي تقوم على التعاقد والملكية الفردية، ونمو الاتجاهات العلمانية وازدياد الانتحار الأناني أو الانتحار بسبب عدم احترام المعايير في الجماعة أو المجتمع.

والشكل الأول وهو الانتحار الأناني: مرتبط بمصالح الذات ولا تبرره المعايير السائدة ومحصلة الصراع بين رغبات الفرد وسلطة المجتمع ويحسم الصراع بتدمير الذات.

أما الشكل الآخر من الانتحار فهو **الانتحار الأنومي (المعياري)** فينشأ نتيجة شيوع مظاهر التفكك الاجتماعي وخاصة أوقات الأزمات الاقتصادية عندما تتسع الهوة بين التطلعات والواقع اتساعا كبيرا. واتساقا مع التطور من المجتمع العسكري الى المجتمع الصناعي عند سبنسر يصف نمط المجتمع العضوي عند دوركايم البناء الاجتماعي في أطوار معينة من تطوره.

القضايا الأساسية:

على خلاف أوجست كونت وسبنسر فإن مفهوم دوركايم للمجتمع يعطي قيمة أكبر لمعايير المجتمع التي يطلق عليها الشعور الجمعي(الضمير الجمعي). ولكنه يتفق معهما في الإيمان بالصيغة العضوية والتطورية. فالمجتمع يمثل صورة من الإرادة الجمعية التي تتطور طبقا لتطور حاجات المجتمع الأساسية فتحدد وتقيد سلوك الأفراد داخل المجتمع، وكلما تغيرت هذه الحاجات من جراء تكاثر السكان يزداد تعقد تقسيم العمل، وتظهر المعايير المرتبطة به. فيتحرك المجتمع من التضامن الآلي التضامن العضوي.

وهذا المدخل المعياري والعضوي والتطوري يمثل جوهر علم الاجتماع وهو المساهمة الهامة والكبرى والباقية لدوركايم في علم الاجتماع.

ويمكن تلخيص بعض القضايا الأساسية عند دوركايم على النحو التالي:

١. الى أي مدى يمتلك الضمير الجمعي وجودا مستقلا في الواقع؟ أي هل دوركايم وحّد بين الضمير الجمعي والمجتمع، ومن ثم فرض وجودا مستقلا للوجود الجمعي؟.

٢. مدى ارتباط العلاقة بين حجم السكان وتقسيم العمل وبساطة التكامل الاجتماعي والربط بين هذه العوامل يتضمن خطر التبسيط المفرط.

٣. يبدو أن مشاكل قياس الوقائع الاجتماعية على مستوى الفرد والمجتمع كثيرة.

٤. الى أي مدى تمثل الوقائع الاجتماعية حاجات الصفوة بدلا من حاجات المجتمع العامة؟ لقد درس دوركايم عدم المساواة لكنه آمن بالتفسير البنائي للمجتمع.

ورغم تلك المشكلات، فلا زالت أعمال دوركايم واحدة من أهم المساهمات التي قدمت لعلم الاجتماع والفكر الاجتماعي العلمي وخاصة تصوره المعياري للمجتمع.

المحاضرة(٦)
النظرية البنائية الوظيفية
(تالكوت بارسونز)

النظرية البنائية الوظيفية

يمكن القول بأن ما أصبح يعرف بالاتجاه البنائي الوظيفي في النظرية الاجتماعية يمثل اكثر الاتجاهات رواجا في علم الاجتماع في خلال الخمسين عاما الأخيرة في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأروبا.

وخلال هذه السنوات الخمسين ظهرت مؤلفات عديدة حول هذا الاتجاه النظري في علم الاجتماع سواء منها ما تناولته بالشرح أو التعديل أو الحذف والإضافة والنقد. وقد اعتبر هذا الاتجاه من المعالم الرئيسية لعلم الاجتماع الاكاديمي المعاصر.

ويميل كثير من علماء الاجتماع الذين يروجون لهذا الاتجاه الى اعتبار علم الأنثروبولوجيا هو المصدر الأساسي لذلك الاتجاه. ويشيرون بصفة خاصة الى كتابات كل من راد كليف براون ومالينوفسكي.

إلا ان هناك علماء اجتماع آخرين يرون أن هذا الميل من جانب علماء الاجتماع الوظيفيين الى الربط بين نشأة الاتجاه الوظيفي في علم الاجتماع وبين الاتجاه الوظيفي في الأنثروبولوجيا الثقافية إنما هو تشويه للحقيقة ومحاولة لإخفاء الطابع الأيديولوجي المحافظ لذلك الاتجاه. فالواقع أن الاتجاه الوظيفي كما سيتبين لنا أنه يعتمد على المسلمات الأساسية للاتجاه العضوي الذي كان سائدا في النظريات الاجتماعية الأولى في علم الاجتماع والذي تخلى عنه علماء الاجتماع بعد ما أصبح هذا الاتجاه كما يقول (مارتن ديل) سيء السمعة وموصوما بوصمة الرجعية.

والمسلّمة الأساسية التي تعتمد عليها البنائية الوظيفية والتي تدور حول فكرة تكامل الأجزاء في كلٍ واحد، والاعتماد المتبادل بين العناصر المختلفة للمجتمع هي التي كانت تدور حولها فكرة الاتفاق العام عند أوجست كونت وفكرة التكامل الذي يصحب التمايز عند سبنسر ونظرة باريتو للمجتمع على أنه في حالة توازن، كما أن نفس هذه المسلمة كانت موجوده في أعمال دوركايم.

والبنائية الوظيفية ليست في واقع الأمر سوى صياغة جديدة لأفكار ومسلمات قديمة تعود الى القرن (١٩م) وترتبط بظهور ذلك الاتجاه القوي ذي الصبغة العلمية للدفاع عن النظام الرأسمالي وتبريره.

وعلى ذلك فإن المؤسسين الحقيقيين للوظيفية هم علماء الاجتماع الأوائل من الوضعيين العضويين وتعتمد الوظيفية بصفة أساسية على فكرة النسق العضوي Organic systemالتي اعتمدت عليها النظريات العضوية. وهي الفكرة التي مؤداها (أن كل شيء يمكن أن ينظر إلية باعتباره نسقا أو كلا متكاملا يتكون من أجزاء مثل الكائن الحي) .

ويجدر بنا قبل أن نستطرد في شرح العلاقة بين الوظيفية وبين الوضعية والأنثروبولوجيا الثقافية أن نحدد أولا الخصائص الأساسية للاتجاه الوظيفي في النظرية الاجتماعية.

على الرغم من أن هناك عديدا من علماء الاجتماع الذين ينتمون الى الاتجاه الوظيفية مثل روبرت ميرتون وتالكوت بارسونز ... وغيرهم،

مسلمات النظرية الوظيفية

وبالرغم من الاختلافات بين هؤلاء العلماء **إلا انه يمكن القول بصفة عامة أن الاتجاه الوظيفي يعتمد ست أفكار أو مسلمات رئيسية محورية هي:**

١. يمكن النظر الى أي شيء سواء كان كائنا حيا أو اجتماعيا ، فردا كان أو جماعة صغيرة أو تنظيما رسميا أو مجتمعا أو حتى العالم بأسره على أنه نسق أو نظام (.(Systemوهذا النسق يتألف من عدد من الأجزاء المترابطة. فجسم الإنسان يتكون من مختلف الأعضاء والأجهزة، والجهاز الدوري فيه عبارة عن نسق يتكون من مجموعة من الأجزاء، وشخصية الفرد نسق يتكون من أجزاء مختلفة مثل السلوك والحالة الانفعالية والعقلية... الخ وكذلك المجتمع والعالم.

٢. لكل نسق احتياجاته الأساسية لابد من الوفاء بها والا فإن النسق سوف يفنى أو يتغير تغيرا جوهريا. فالجسم الإنساني مثلا يحتاج الى الأكسجين والماء، وكل مجتمع يحتاج لأساليب لتنظيم السلوك(القانون) ومجموعة لرعاية الأطفال(الأسرة) وهكذا.

٣. لابد أن يكون النسق دائما في حالة توازن Equilibrium ولكي يتحقق ذلك فلابد أن تلبي أجزاؤه المختلفة احتياجاته. فإذا اختلت وظيفة الجهاز الدوري فإن الجسم سوف يعتل وصبح في حالة من اللاتوازن. Disequilibrium.

٤. وكل جزء من أجزاء النسق قد يكون وظيفيا Functionalأي يسهم في تحقيق توازن النسق. وقد يكون ضارا وظيفيا Dis-Functional أي يقلل من توازن النسق وقد يكون غير وظيفي -Non Functionalأي عديم الفائدة والقيمة بالنسبة للنسق.

٥. يمكن تحقيق كل حاجة من حاجات النسق بواسطة عدة متغيرات أو بدائل. فحاجة المجتمع لرعاية الأطفال مثلا يمكن أن تقوم بها الأسرة أو دار الحضانة، وحاجة المجموعة للتماسك قد تتحقق عن طريق التمسك بالتقاليد أو عن طريق الشعور بالتهديد من عدو خارجي.

الهدف الرئيسي في النظرية الوظيفية

٦. وحدة التحليل يجب أن تكون الأنشطة أو النماذج السلوكية المتكررة. فالتحليل الاجتماعي الوظيفي لا يحاول أن يشرح كيف ترعى أسرة معينة أطفالها ولكنه يهتم بكيفية تحقيق الأسرة بوصفها نسقا اجتماعيا(نظاما) هذا الهدف.

إن هدف الوظيفية أو التفسير الوظيفي :هو الكشف عن كيفية إسهام أجزاء النسق في تحقيق النسق ككل لاستمراريته أو الإضرار بهذه الاستمرارية . فعلم الاجتماع الوظيفي قد يحاول الكشف عن دور وسائل الاتصال الجمعي في المجتمعات المركبة في تحقيق المجتمع لتوازنه. وقد يحاول أن يكشف عن الجوانب السلبية للحرب أو الجريمة بالنسبة للمجتمع.

ولكي نوضح أكثر المقصود الوظيفي نأخذ كمثال تحليل(كنجزلي ديفز، وولبرت مور) للتدرج الاجتماعي أو (التفاوت الطبقي) حيث يقول المؤلفان: ((أن التدرج الاجتماعي الذي هو عبارة عن ترتيب للمجموعات أو الأفراد في درجات أو رتب ذات مكانات مختلفة مثل: الطبقات الاجتماعية أو الفئات المهنية هو شيء وظيفي بالنسبة للمجتمع، أي أنه لا بد أن

يكون قائما باستمرار لأن هذا التدرج هو أساس شغل المراكز الهامة في المجتمع بأكثر الأشخاص كفاءةً. ويعني كل من (ديفز ومور) بذلك أنه اذا كانت هناك مساواة بين الناس في أوضاعهم الاجتماعية وفيما يحصلون عليه من مزايا، فإن المجتمع لن يستطيع المحافظة على حالته السوية. فالمراكز السياسية والاقتصادية الهامة ستظل خالية أو ستُشغل بأشخاص غير أكفاء مما سيؤدي الى اختلال المجتمع. ويفترض(ديفز ومور) أن

عدد الأفراد الأكفاء والمؤهلين لشغل هذه المراكز محدود، وأمثال هؤلاء لابد أن يضحوا في البداية خلال عملية تدريبهم وبالتالي فإنهم لابد أن يحصوا على امتيازات كافية تشجعهم على تحمل فترة التدريب هذه.

وعلى ذلك فان نظام التدرج يسهم في أداء المجتمع لوظائفه، أي يكون وظيفيا بالنسبة للمجتمع بوصفه نسقاً.

ويرى عالم اجتماع أخر أن الأسرة تقوم بإشباع حاجات كل من الفرد والمجتمع، أي أنها وظيفية بالنسبة للاثنين. فوظائف الأسرة بالنسبة للمجتمع هي:

١. المحافظة على النوع. ٢. تنظيم السلوك الجنسي.

٣. تزويد الأطفال باحتياجاتهم الجسمية والاقتصادية والنفسية.

٤. المحافظة على التراث الثقافي ونقله من جيل الى جيل.

أما بالنسبة لوظيفتها للفرد فإنها تؤدي لها التالي:

١. البقاء الطبيعي. ٢, الإشباع الجنسي.

٣. الرعاية والحماية. ٤, التنشئة الاجتماعية.

٥. اكتسابه صفاته الاجتماعية.

معنى كلمة (وظيفة) في علم الاجتماع

ويستند التحليل الوظيفي – كما يؤكد كثير من العلماء – على التصور العضوي للمجتمع، أي النظر للمجتمع بوصفه يشبه الكائن الحي، وبذلك تستمد الوظيفية مسلماتها الأساسية من الاتجاه العضوي الذي أسسه (كونت ودوركايم وغيرهما) والذي اعتمد عليه علماء الأنثروبولوجيا في تحليلاتهم الوظيفية للمجتمعات البدائية، ثم ما لبث تأثيرهم أن انتقل مرة أخرى الى علم الاجتماع.

ماذا تعني كلمة (وظيفة) في النظرية الوظيفية:

استخدمت كلمة وظيفة بعدة معانٍ في علم الاجتماع، من أهمها:

١. الإسهام الذي يقدمه الجزء للكل - الذي قد يكون المجتمع أو الثقافة- وهذا هو المعنى الذي استخدمها به كل من دروكايم وبراون ومالينوفسكي.

٢. الإسهام الذي تقدمه الجماعة الى أعضائها أو الإسهام الذي يقدمه المجتمع الكبير للجماعات الصغيرة التي يضمها.

٣. تستخدم – الوظيفة – للإشارة الى دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها عمليات أو أثارا لأبنية اجتماعية مثل انساق القرابة أو الطبقة..الخ.

ومن أهم الأفكار في النظرية الوظيفية هي أن العمليات أو الأجزاء ذات أهمية ثانوية بالمقارنة بالنسق عند تحليل المجتمع.

ويختلف علماء الاجتماع الذين يتبنون الاتجاه الوظيفي في نوعية الأنساق التي يهتمون بملاحظتها، ١- فمنهم من يركز على تحليل انساق صغيرة(كالمجموعات) ويمثل هذا الاتجاه مجموعة من العلماء، ويعرفونها بوظيفية الوحدات الصغرى Micro-Functionalism . **٢-** ومنهم من يركز على تحليل أنساق كبيرة (كالمجتمع) ويمثل هذا الاتجاه: ميرتون وبارسونز، ولكن جميع الوظيفيين يشتركون في أن الخصائص التي يحللونها دائما هي خصائص معنوية أو فكرية. أي أنهم مثاليون.

وفيما يلي سنعرض باختصار وتركيز لاثنين من ممثلي الاتجاه الوظيفي البنائي هما عالما الاجتماع الأمريكيين الشهيرين : تالكوت بارسونز، وروبرت ميرتون.

بارسونز:

فقد تأثر بارسونز فكريا بعالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم، وعالم النفس النمساوي فرويد والإيطالي باريتو صاحب نظرية الصفوة وعالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر وكذلك بعلماء الاقتصاد التقليديين.

وقد بدأ بارسونز كتاباته النظرية مسترشدا بماكس فيبر، ويمكن تصنيف مؤلفاته الأولى تحت **نظريات الفعل الاجتماعي** السابق الحديث عنها.

ويرتكز الاطار النظري لبارسونز على أربعة مفاهيم أساسية:

* الفعل الاجتماعي Social Action * الموقف Situation

* الفاعل Actor * توجيهات الفاعلين Actor's Orientation

ويرى بارسونز أن كل فعل عبارة عن سلوك، ولكن كل سلوك لي فعلا. مثال :فاتجاه الفراشة نحو الضوء والذي يعتبر استجابة آلية من جانب ذلك الكائن لمنبه الضوء سلوكا وليس فعلا، وذلك لانتفاء العنصر الذاتي في هذا السلوك، أما إن كان سلوك الفراشة صدر بتفكير واختيار فهذا فعلٌ وليس سلوكا.

وعلى ذلك فالذي يفرّق بين الفعل والسلوك ، هو ان الفعل يتصف بعنصر اتخاذ القرار الذي يقع بين المنبه والاستجابة. أما الموقف فإنه قد يكون المسرح أو أي ظرف يكون فيه الفاعل مضطرا لاتخاذ قرار يختار بموجبه بين أدوار بديلة يقوم بها. والموقف يتضمن مجموعة متنوعة من المنبهات الممكنة، وبصفة خاصة الموضوعات سواء كانت إنسانية أو غير إنسانية وكذلك مجموعة من المعايير التي هي عبارة عن: تصورات لما هو مرغوب فيه . ومهمة الباحث أن يحدد كيف ولماذا يستجيب الفاعل لمنبهات معينة دون غيرها.

وحين يوجد الفاعل في موقف ما ويكون عليه أن يقوم فيه بفعل معين فإن هناك ما يحدد اختياره لنوعية ذلك الفعل وهذه المحددات هي ما اسماها بارسونز بالتوجيهات Orientations .

فحين نتعامل مع الآخرين فإنه توجهنا عدة أشياء، فلا بد ان نقرر ما اذا كان تعاملنا معهم سيكون على أساس علاقة انفعالية أو سيكون محايدا انفعاليا ، وبناء على ذلك نقرر ما اذا كنا سنتعامل معهم على أساس انهم شخصيات متكامل هاو على أساس جزئي ثانوي فحين يختار رجل ما زوجة له ، فانه يتعامل معها انفعاليا وعلى أساس أنها شخصية متكاملة، وحين يختار طبيبا ليعالجه فانه يتعامل معه على أساس غير انفعالي وبالتالي ينظر آليه من جانب واحد فقط هو كفاءته في وظيفته(وقد اسمى بارسونز ذلك بالتوجيهات الإدراكية الدافعة).

كذلك يجب ان نختار بين ان نتصرف في موقف ما على أساس المصلحة الذاتية أو على أساس مصلحة المجموعة (واسمى ذلك بالتوجيهات التقويمية الدافعية).

وقد ميّز بارسونز بين ما اسماه بالتوجيهات الدافعية والتوجيهات القيمية. حيث تشير التوجيهات الدافعية الى تلك الجوانب من توجيهات الفاعل نحو موقفه والتي ترتبط بالإشباع أو الحرمان الفعليين أو الممكنين لاحتياجات الفاعل.

وتوجد ثلاثة أنواع من التوجيهات الدافعية:

١. التوجيهات المعرفية: وتتضمن تحديد مكان الموضوع الذي نتعامل معه في عالم موضوعات الفاعل وتحديد خصائصه ووظائفه الفعلية الممكنة وتمايزه عن غيره من الموضوعات.

٢. التوجيهات الانفعالية : وتتضمن مختلف العمليات التي يوزع بواسطتها الفاعل طاقته على مختلف الأعمال فيما يتعلق بمختلف الموضوعات ذات الدلالة الانفعالية في محاولته زيادة الإشباع.

٣. أما التوجيهات القيمية: فتشير الى المعايير الثقافية أو الى تلك الجوانب من توجيهات الفاعل التي تجبره على ان يأخذ في اعتباره إمكانية تطبيق معايير معينة ومحكات اختيار حين يكون في موقف يسمح له بأن يختار السلوك الذي يقوم به.

وتنقسم هذه التوجيهات القيمية بدورها الى ثلاثة أنواع:

أ- التوجيهات المعرفية: وتتضمن الالتزام بمعايير معينة ثبت صدقها معرفيا.

ب- التوجيهات التقديرية: وتتضمن الالتزام بمعايير معينة ثبت بواسطتها ملائمة أفعال معينة لموضوع ما انفعاليا.

ج- التوجيهات الأخلاقية: وتتضمن الالتزام بمعايير معينة تحددت صلاحيتها على أساس نتائج الأفعال بالنسبة للنسق الكلي(أي المجتمع).

النظرية الوظيفية لدى بارسونز

وهذه العناصر المختلفة التي بدأ بارسونز يدرسها (أي الفاعل والفعل والموقف والتوجيهات) ارتكز عليها فيما بعد عند محاولته تكوين نظرية بنائية وظيفية عن المجتمع، وهي التي يرى ان أي نسق يتكون منها فهي تدخل في تكوين ثلاثة أنواع من الأنساق: ١- **النسق الاجتماعي ٢- نسق الشخصية ٣- النسق الثقافي.**

ويعرّف بارسونز النسق الاجتماعي عدة تعريفات أوضحها ذلك الذي يقول: (والنسق الاجتماعي عبارة عن فاعِلَين أو اكثر يحتل كل منهم مركزا أو مكانة متمايزة عن الأخرى ويؤدي دورا متمايزا، فهو عبارة عن نمط منظم بحكم علاقات الأعضاء ويصف حقوقهم وواجباتهم تجاه بعضهم البعض، واطار من المعايير أو القيم المشتركة بالإضافة الى أنماط مختلفة من الرموز والموضوعات الثقافية المختلفة).

ويعرّف بارسونز الدور بانه: سلوك الفاعل في علاقته مع آخرين اذا ما نظرنا الى هذا السلوك في سياق أهميته الوظيفية للنسق الاجتماعي، **أما المكانة** فتشير الى موقع الفاعل في نسق علاقة اجتماعية معينة.

وعندما يتكون نمط ثابت نسبيا من الأدوار يسمى ذلك بناء Structure أما النمط الثابت من علاقات الأدوار فيسمى نظاما Institution.

أما النسق الثقافي فيرى بارسونز انه نتاج لانساق التفاعل الاجتماعي من ناحية ومحددا لهذا التفاعل من ناحية أخرى، وقد ميّز بارسونز بين ثلاثة أنماط من الانساق الثقافية:

١. انساق الأفكار أو المعتقدات.

٢. انساق الرموز التعبيرية مثل الفن.

٣. انساق التوجيهات القيمية.

ويرى بارسونز أن الانساق الاجتماعية تتصف بخاصيتين أساسيتين هما:

أولا: ميل مكونات النسق الى الحفاظ على درجة عالية من التكامل على الرغم من الضغوط البيئية.

ثانيا: ميل الى التوازن أي استمرارية مكونات النسق في أداء وظائفها.

كما يرى بارسونز في نظريته عن (النسق الاجتماعي) أولاً: أن المجتمع يملك واقعا وحقيقة اجتماعية مستقلة كنسق اجتماعي، عن وجود الأفراد. **ثانياً**: يُبرزُ البناء الاجتماعي أو الأنساق الفرعية التي يتكون منها البناء (المنظمات Organization) **عددا من الوظائف الأساسية الهامة . وتتكون هذه الوظائف من :**

١. **التكامل**: Integration: بمعنى أن النسق يعتمد على مجموعة من المعايير التي تربط الفرد بالمجتمع، فينتج التكامل المعياري في نسق المجتمع العام ككل.

٢. **نمط المحافظة:** Pattern maintenance : ويعني أن النسق بما يتضمنه من معايير وقيم لها عموميتها، يؤدي الى المحافظة على نمط التفاعل فلا يخرج أو ينحرف عن حدود النسق.

٣. **التكيف:** Adaptation : ويعني أن كل نسق اجتماعي عليه أن يتكيف مع البيئة الاجتماعية والمادية التي يوجد بها . فالفرد من خلال دوره يتكيف مع نسق المجتمع العام، والمجتمع العام يجب أن يتكيف مع نسق المجتمع الدولي.

٤. **تحقيق الهدف:** Goal attainment: ويقصد به أساليب الأفراد الفاعلين من أجل تحقيق الهدف . بمعنى أن الأفراد أثناء إشباعهم لحاجاتهم يختلفون من حيث مكونات شخصية كل منهم، حيث يختار كل منهم بديلا من البدائل المتاحة في النسق الثقافي.

ما سبق يعني :أن أي نسق لابد أن يتكيف مع البيئة الطبيعية ويهيئ الوسائل الاقتصادية الضرورية لحياة أعضائه، ولكي يحقق النسق أهدافه لابد له من صورة ما من التنظيم السياسي (أي تركيز القوة) ولابد من حماية النسق لنفسه من التحلل والتفكك وذلك عن طريق وضع مجموعة من القوانين والتنظيمات وإقامة جهاز شرطي يعمل على تنفيذها(التكامل)كما لابد له من تدريب الأعضاء الجدد عن طريق الضبط الاجتماعي على المشاركة في نشاطات المجموعة تبعا للأساليب المحددة.

ويشير بارسونز الى المجتمع الإنساني ككل بوصفه نسقا يتكون من مجموعة من الأنساق (المجتمعات) التي يشكل كل منها نسقا مستقلا نسبيا ولكنها جميعا تشكل سويا نسق المجتمع الإنساني.

المحاضرة(٧)
النظرية البنائية الوظيفية
(روبرت ميرتون)

النظرية البنائية الوظيفية (روبرت ميرتون)

على الرغم من الاختلافات بين تالكوت بارسونز وروبرت ميرتون في تفاصيل النظرية التي حاول كل منهما، وبالرغم من الانتقادات التي وجهها كل منهما للآخر ومن التعديلات التي اقترح ميرتون إدخالها على الوظيفية، إلا أن كليهما يبدا من نفس المسلمات النظرية الأيديولوجية التي بدأ بها كل أصحاب الاتجاه الوظيفي وأصحاب الاتجاه العضوي من قبلهم. وأهم هذه المسلمات : أن البناء الاجتماعي في حالة ثبات وتوازن وأن هناك تكاملا بين عناصر هذا البناء، وأن هناك إجماعا عاما بين أعضاء المجتمع على قيم معينة وان هناك توازناً يجب ألا يصيبه الخلل في البناء الاجتماعي.

لقد بدأ ميرتون – الذي كان تلميذا لتالكوت بارسونز – بنقد بارسونز على أساس ان أعماله تمثل جهدا غير ناضج لمحاولة تكوين نظرية اجتماعية عامة، ولكنه لم يمس في كتاباته المسلمات الرئيسية التي ارتكزت عليها أعمال بارسونز أو غيره من الوظيفيين، وذلك بسبب أنه هو ذاته يسلم بها تماما، وبدلا من ذلك ركز جهده على نقد تفاصيل هذه الأعمال أو الفروض الجزئية التي تحتوي عليها.

ورأى ميرتون أن النظرية في علم الاجتماع يجب أن تكون (متوسطة المدى: Middle range) وعرّف النظرية متوسطة المدى بانها تلك " التي تقع بين طرفين: الطرف الأول يتمثل في مجموعة الافتراضات العلمية البسيطة التي نقابلها عند إجراء البحوث الميدانية. والطرف الثاني يتمثل في النظريات الشاملة الموحدة التي تسعى لتفسير كل ملاحظة عن انتظام في السلوك الاجتماعي والتنظيم الاجتماعي.

وبعبارة أخرى يقترح ميرتون مستوى من النظرية الاجتماعية الامبيريقية والتي تتضمن قدرا كبيرا من التجريد. ولكنه أقل من مستوى النظرية الكبرى . Grand Theoriesوالتي تتضمن قدرا كبيرا من التجريد، وبرر ميرتون دعوته لهذا المستوى المتوسط من التجريد بأنه يسمح بإخضاع ما يتضمنه من قضايا للاختبار الامبيريقي نظرا لقرب هذه القضايا من الوقائع الملموسة.

أمثلة للنظرية متوسطة المدى

وعلى ذلك فان النظرية متوسطة المدى تتناول أساسا جوانب معينة من الظواهر الاجتماعية، وليست الظواهر في عموميتها، فيمكن مثلا أن تكون لدينا **نظرية عن الجماعات المرجعية ونظرية عن الحراك الاجتماعي ونظرية عن صراع الأدوار ونظرية عن تكون القيم... الخ.**

وبعد أ تصبح لدينا هذه النظريات المتعددة ذات المدى المتوسط يمكننا في المستقبل أن نصوغ منها نظرية عامة موحدة، لكن الوقت لم يحن بعد لتكوين مثل هذه النظرية الموحدة.

وقد حدد ميرتون مجموعة من الوحدات التي يجب أن تمثل بؤرة لاهتمام التحليل في النظرية الاجتماعية متوسطة المدى مثل : الأدوار الاجتماعية، العمليات الاجتماعية، الأنماط الثقافية، الانفعالات المحددة ثقافيا، المعايير الاجتماعية، تنظيم الجماعة، البناء الاجتماعي، وأساليب الضبط الاجتماعي... الخ.

وبذلك جعل بؤرة اهتمام النظرية الاجتماعية ما اسماه:

بالعناصر الثقافية المقننة (Standardized Cultural items).

وقد استمد ميرتون مسلماته الأساسية عن الوظيفية من علماء الأنثروبولوجيا وبخاصة رادكليف براون ومالينوفسكي. وصاغ نظريته الوظيفية من أهم مؤلفاته (النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعي) الذي نشر عام ١٩٤٩م.

وقد استخدم ميرتون كلمة وظيفة بمعنى « الإجراءات البيولوجية الاجتماعية التي تساعد على الإبقاء على النسق وعلى تكيفه أو توافقه وهذه الإجراءات قابلة للملاحظة.

فمثلا: اذا نظرنا الى الجسم بوصفه نسقا بيولوجيا فان ضخ الدم يكون إجراء بيولوجيا يقوم به القلب للمحافظة على بقاء الجسم، وبذلك تكون وظيفة القلب. واذا نظرنا للمجتمع على أنه نسقا اجتماعيا فان المحافظة على النظام تكون إجراء اجتماعيا تساعد على بقاء المجتمع ويكون وظيفة الحكومة هكذا.

والوظيفة بهذا المعنى لها مؤشرات موضوعية قابلة للملاحظة، ولا يجب الخلط بينها وبين الأهداف والأغراض أوالدوافع . فهذا الزواج أو الدافع اليه مثلا يختلف عن وظيفة الزواج والأسباب التي يقدمها الناس تفسيرا لسلوكهم تختلف عن نتائج هذا السلوك بالنسبة للنسق الاجتماعي – تلك النتائج التي يمكن ملاحظتها.

وقد انتقد ميرتون غيره من أصحاب الاتجاه الوظيفي، وخاصة رادكليف براون على أساس ان الافتراضات التي ترتكز عليها نظريتهم شديدة العمومية وغير المحدودة، فهؤلاء العلماء قد افترضوا أن الأنشطة الاجتماعية المقننة أو العناصر الثقافية وظيفية بالنسبة للمجتمع بأسره وأن جميع هذه العناصر الثقافية والاجتماعية تؤدي وظائف اجتماعية وأن هذه العناصر لا يمكن للمجتمع الاستغناء عنها.

ورأى ميرتون ان هذه الافتراضات غير صحيحة ولذلك فانه أقام نظريته على ثلاث فروض أساسية

بديلة هي :

١) العناصر الاجتماعية أو الثقافية قد تكون وظيفية بالنسبة لمجموعات معينة وغير وظيفية Non functionalبالنسبة لمجموعات غيرها، وضارة وظيفيا Dies-functionalبالنسبة لمجموعات أخرى وعلى ذلك فلابد من تعديل فكرة أن أي عنصر اجتماعي أو ثقافي يكون وظيفيا بالنسبة للمجتمع بأسرة.

٢) أن نفس العنصر قد يكون له وظائف متعددة ونفس الوظيفة يمكن تحقيقها بواسطة عناصر مختلفة(البدائل الوظيفية).فمثلا الملابس التي يمكن ان تؤدي عدة وظائف مختلفة، فهي تساعد على الوقاية من الطقس أو تكسب الفرد مكانة اجتماعية معينة أو يكون لها دور في تحديد جاذبية الشخصية. ومعنى ذلك ان هناك تنوعا في الوسائل التي يمكن ان تحقق هدفا وظيفيا معينا. وقد استخدم ميرتون لذلك مفهوم (البدائل الوظيفية).

٣) يجب ان يحدد التحليل الوظيفي الوحدات الاجتماعية التي تخدمها العناصر الاجتماعية أو الثقافية. ذلك أن بعض العناصر قد تكون ذات وظائف متعددة، وقد تكون بعض نتائجها ضارة وظيفيا.

ويرى " دون مارتنديل" أن ميرتون قد أضاف الى التحليل الوظيفي إضافتين رئيسيتين هما:

أولا: أنه قدّم مفاهيم مهمة كـ" **المعوقات الوظيفية، أو الأضرار الوظيفية** Dies-function والذي يعني النتائج القابلة للملاحظة والتي تقلل من تكيف النسق الاجتماعي أو توافقه، وأن كان إيميل دوركايم وراد كيف براون قد أشارا الى ذلك بصورة أو بأخرى في أعمالهما.

ثانيا: أنه ميّز بين نوعين من الوظيفة الاجتماعية: **الوظيفة الظاهرة Manifest function والوظيفة الكامنة Latent function.**ويقصد ميرتون بالوظيفة الظاهرة: هي تلك النتائج الموضوعية التي يمكن ملاحظتها والتي تسهم في الحفاظ على النسق والتي يقصدها المشاركون في النشاط. أما الوظيفة الكامنة: فهي التي لم تكن مقصودة أو متوقعة.

مثال : دور الدّين في تحقيق التكامل الاجتماعي، هذا الدور مثلما قرر دوركايم لم يكن مقصودا، وعلى ذلك فان التكامل الاجتماعي يعتبر في هذه الحالة وظيفة كامنة للدين .

وأما اذا استخدم الدين عن قصد بواسطة الطبقة الحاكمة لتخدير الطبقات المحكومة وإخضاعها للنظام، مثلما قرر ماركِ، فان هذه النتائج تكون وظيفة ظاهرة للدين. وجدير بالذكر أن ميرتون لم يستحدث مفهومي الوظيفة الظاهرة والكامنة، ولكنه استعارها من (فرويد) الذي استخدمها في التمييز بين المحتوى الظاهر (الشعوري) والمحتوى الكامن(اللاشعوري) للحلم، مما يدل على تركيز ميرتون على الجوانب النفسية.

ويرى مارتنديل أن من أهم نماذج التحليل الوظيفي عند روبرت ميرتون تتمثل في دراسته عن البناء الاجتماعي واللامعيارية. ففهي هذه الدراسة طبق ميرتون نظريته الوظيفية في تحليل المصادر الاجتماعية والثقافية للسلوك المنحرف، وكان هدف ميرتون من هذه الدراسة أن يبين كيف يمارس البناء الاجتماعي ضغوطا محددة على أشخاص معينين في المجتمع تجعلهم يمارسون سلوكيات غير امتثالية بدلا من ممارستهم لسلوك امتثالي.

وقد بدأ ميرتون دراسته(نظريته) بمسلمة هي التالية: (أن الأبنية الاجتماعية والثقافية تصوغ صفة المشروعية على أهداف معينة، وعلاوة على ذلك تحدد أساليب معينة مقبولة اجتماعيا لتحقيق تلك الأهداف). أي أن ميرتون ميز بين عنصرين رئيسيين فيما اسماه بالبناء الثقافي للمجتمع: الأهداف المحددة ثقافيا من جهة، والأساليب النظامية لتحقيق هذه الأهداف من جهة أخرى.

وفي المجتمع جيد التكامل نجد تكاملا وتناغما بين الأهداف والأساليب، فكل من الأهداف والأساليب تجد تقبلا من أفراد المجتمع ككل، كما أنها تكون ميسورة لهم جميعا. ويحدث اللاتكامل في المجتمع عندما يكون هناك تأكيد على أحد الجانبين بدرجة لا تتناسب مع التأكيد على الجانب الآخر، **وهذا ما يحدث في المجتمع الأمريكي**. فهناك في هذا المجتمع تأكيد على أهداف معينة، مثل النجاح الفردي وجمع الثروة وارتقاء السلم الاجتماعي دون تأكيد مماثل على الأساليب (الوسائل) النظامية والمشروعة لتحقيق هذه الأهداف. فأساليب تحقيق هذه الأهداف غير متاحة للجميع في المجتمع.

وقد نشأ عن ذلك حالة من اللامعيارية(اللانظام) في المجتمع. وذلك أنه لابد من أن تكون هناك درجة من التناسب بين هدف تحقيق النجاح وبين الفرص المشروعة للنجاح بحيث يحصل الأفراد على الإشباع الضروري الذي يساعد على تحقيق النسق الاجتماعي لوظائفه، فاذا لم يتحقق ذلك فإن الوظيفة الاجتماعية تصاب بالخلل **ويحدث ما اسماه بالمعوقات الوظيفية.**

وقد قدّم ميرتون تصنيفا لأنماط استجابات الأفراد أو تكيفهم لذلك والتفاوت أو الانفصام بين الأهداف المرغوبة والمحددة ثقافيا(أي النجاح) وبين الأساليب المتاحة لتحقيق هذه الأهداف. وقد قرر أن هناك خمسة أنماط لتكيف الأفراد في المجتمع، أول هذه الأنماط وظيفي، أي يساعد على بقاء النسق الاجتماعي. والأربعة الآخرين ضارين وظيفيا(أو أنماط تكيف منحرفة) أي تهدد بقاء النسق. وهذه الأنماط الخمسة هي:

١) **نمط الامتثال**: ويحدث هذا النمط من التكيف حين يتقبل الأفراد الأهداف الثقافية ويمتثلون لها وفي نفس الوقت يتقبلون الأساليب التي يحددها النظام الاجتماعي بوصفها أساليب مشروعة لتحقيق هذه الأهداف. ومثال ذلك: تقبل الأفراد لهدف تحقيق النجاح والحصول على دخل مرتفع وتقبلهم لاستكمال تعليمهم كأسلوب لتحقيق ذلك الهدف فاذا كانت فرصة التعليم متاحة لكل أو اغلبيه أفراد المجتمع فان حالة من الثبات أو التكامل سوف تسود المجتمع لان غالبية الناس سوف تتقبل الأهداف وأساليب تحقيقها في نفس الوقت أما اذا كان بالمجتمع تأكيد على الأهداف فقط دون إتاحة الأساليب اللازمة لتحقيقها لكل الناس فان احد الأنماط الأربعة الآتية من التكيف الانحرافي يمكن ان تحدث.

٢) **نمط الابتداع**: ويرى ميرتون أن هذا النمط من التكيف هو اهم انماط التكيف الانحرافي في المجتمع الامريكي. ويعني به أن نسبة كبيرة من الناس في المجتمع تتقبل أهداف

النجاح التي تؤكد عليها الثقافة الأمريكية ولكنها تجد فرص تحقيق تلك الأهداف مغلقة أمامهم لان توزيع هذه الفرص غير متكافئ. وفي هذه الحالة يرفضون أساليب مشروعة لتحقيق هذا الهدف ويسود هذا النوع من التكيف لدى الطبقات العاملة.

٣) **نمط الطقوسية**: يتمثل هذا النمط من التكيف في التخلي عن الأهداف الثقافية للنجاح الفردي وتحقيق الثروة وصعود السلم الاجتماعي أو التقليل من مستوى طموح الفرد حتى يصل الى درجة منخفضة يمكن معها إشباع هذا الطموح، وفي نفس الوقت يظل الفرد ملتزما بطريقة شبه قهرية بالأساليب المشروعة لتحقيق الأهداف على الرغم من أنها لا تحقق له شيئا يذكر .

ويسود هذا النوع من التكيف لدى الطبقة الوسطى الدنيا، مثل صغار الموظفين البيروقراطيين في الشركات والمصالح الحكومية. ويفسر ميرتون وجود هذا النمط من التكيف بانه يرجع الى أسلوب التنشئة الاجتماعية الصارم السائد في هذه الطبقة والى الفرص المحددة للتقدم المتاحة لأعضاء هذه الطبقة.

٤) **الانسحابية**: وهو من أقل الأنماط شيوعا في المجتمع الأمريكي. والفرد الذي يلجأ إلى هذا النمط الانسحابي يعيش في المجتمع، ولكنه لا يكون جزءا منه، بمعنى انه لا يشارك في الاتفاق الجماعي على القيم المجتمعية. والانسحابي يتخلى عن كل الأهداف والأساليب التي يحددها النسق. ومن أمثلة هذا النمط من التكيف الانحرافي حالات الجنون والتشرد وإدمان المخدرات والخمور. ويرى ميرتون أن هذا النوع من الأفراد لا يقبل الأساليب الإبداعية(غير المشروعة) لتحقيق الأهداف وفي نفس الوقت لا تتاح له الفرصة لاستخدام الأساليب المشروعة لتحقيقها ولا يكون أمامه من مفر سوى ان ينسحب من المجتمع الى عالمه الخاص(الجنون أو السكر أو الأوهام). وهكذا يحل هذا الفرد الصراع النفسي عن طريق الهروب الكامل من المجتمع.

٥) **نمط التمرد** : يتسم هذا النمط من التكيف بإدانة (وليس مجرد رفض كما هو الحال في النمط السابق) كل الأهداف الثقافية للنجاح والالتزام بالأساليب النظامية لتحقيقها. أي اذا كان النمط السابق يتسم برفض الأهداف والأساليب رفضا سلبيا والهروب من المجتمع فإن هذا النمط يتسم بالرفض الإيجابي والسعي الى استبدال البناء الاجتماعي القائم ببناء أخر يضم معايير ثقافية مختلفة للنجاح وفرصا أخرى لتحقيقه.

من العرض السابق لاهم إسهامات ميرتون يتضح أنه يرتكز على نفس المسلمات الأساسية التي يرتكز عليها غيره من الوظيفيين وإن كان يختلف عنهم في بعض الافتراضات الثانوية. فهو يسلم دون ما جدال بأن أساس البناء الاجتماعي هو القيم والمعايير السلوكية، سواء اتخذت في شكل أهداف محددة ثقافيا أو اتخذت شكل أساليب نظامية لتحقيق الأهداف.

كما أنه استبعد البعد التاريخي في تحليله الاجتماعي، ودعا أيضا الى التحليل الجزئي للظاهرات الاجتماعية باستخدام النظريات متوسطة المدى بدلا من التحليل الشمولي للمجتمع. كما أنه أغفل المتغيرات المادية في تفسيره لمنشأ التفاوت بين درجة التأكيد على أهداف النجاح في المجتمع الرأسمالي من جهة ودرجة التأكيد على أساليب تحقيق هذه الأهداف من جهة أخرى.

ويعلق(أيان تايلور وزملاؤه) على إغفال ميرتون الاهتمام بنمط التكيف الامتثالي بقولهم أن ذلك لا يدعو الى الدهشة. فبغض النظر عن حقيقة صعوبة تحديد أمثلة واقعية للأشخاص

الممتثلين في المجتمع الأمريكي، لأن أي شخص يمتثل لأهداف ذلك المجتمع لابد أن يكون بالضرورة أيضا إبداعيا لأنه سيفتش دائما عن أساليب جديدة لتحقيق النجاح، فإن البحث عن مصادر الامتثال كان سيوقع ميرتون في مشكلة عويصة وهي بحث مشروعية السلطة في المجتمع الأمريكي.

كما أن ذلك كان من شأنه أيضا ان يضطره الى مواجهة حقيقة اجتماعية خطيرة تتمثل في أن عدد الأشخاص الممتثلين في المجتمع الأمريكي قليل جدا حتى بين أولئك الذين لا توصد أمامهم فرص تحقيق النجاح بحكم المراكز الاجتماعية التي يشغلونها ولكي يفسر ميرتون ذلك كان سيضطر إلى الخوض في مسائل أعمق من مجرد نقده السطحي لحالة المجتمع اللامعيارية في المجتمع الأمريكي ، أي أنه كان سيخوض في المسائل السياسية والاقتصادية التي يرغب أساسا (كوظيفي) في تجنبها.

إلا أن ميرتون كان الى حد ما ناقدا للمجتمع الأمريكي ويختلف عن بارسونز وغيره من الوظيفيين في أنه لم يتبنَّ بشكل مطلق فكرة وجود الاتفاق الجمعي في المجتمع . لقد أدرك ميرتون وجود تناقضات في النسق الاجتماعي الأمريكي، ولكن التناقضات التي أبرزها ليست ذات طابع مادي وهي جزء من طبيعة النسق حسب رأيه. فهناك عدم تكافؤ للفرص المتاحة للمجموعات المختلفة لتحقيق أهداف النجاح في المجتمع الأمريكي، ولكن عدم التكافؤ هذا يرجع في رأيه الى العناصر الكامنة في الثقافة الأمريكية. وهكذا لا يقدم ميرتون أي تفسير بنائي لوجود عدم التكافؤ في الفرص في المجتمع أو لوجود مثل هذا المناخ الثقافي والأخلاقي. وهكذا يشبه ميرتون من يفسر الانحلال الخلقي للناس في فترة ما بتخليهم عن التمسك بالمبادئ الأخلاقية. أي انه يفسر ما هو ثقافي بما هو ثقافي. وليس ذلك بتفسير.

نقد ميرتون:

١) سلم ميرتون بالمجتمع القائم مع أنه يفترض أن ينظر الى التشكيلات البنائية الثقافية من خارجها. فهذه مهمة عالم الاجتماع.

٢) يرى إيان تايلور بأن ميرتون اقتصر على وصف الواقع الأمريكي ونقد بعض جوانبه الثقافية دون ان يمس جوهر العلاقات فيه. وبذلك يقف ميرتون عند حدود الدعوة الإصلاحية الجزئية للمجتمع. ولم يستمر لطرح البديل وتغيير جذري في المجتمع.

٣) أن المشكلة في المجتمع الأمريكي ليست ثقافية فقط بل، بل لان نظام تقسيم العمل لا يقوم على الكفاءة بل على المحسوبية. ويعني أن البناء الاجتماعي قائم على عدم المساواة (المُلكِية الوراثية) التي بسببها لا ينطلق أفراد المجتمع عند مولدهم من نفس نقطة الانطلاق.

٤) أن نظرية ميرتون قد تم تطبيقها في المجتمع الأمريكي لمساعدة أبناء الطبقات الفقيرة لتحقيق النجاح، لكن بعد عملهم في بعض المؤسسات فشلوا بسبب فقدانهم المهارات الأساسية للمهن التي عملوا بها، لذا فقد تم الاستغناء عنهم بعد توظيفهم. وتبدو هذه المحاولة – توظيف أبناء الطبقات الدنيا – مجرد تضليل حقيقي. فالفرص ترتبط ارتباطا وثيقا بكيفية توزيع الثروة بين مجموعات المجتمع.

نقد النظرية البنائية الوظيفية

١) بالنسبة لبارسونز وهو من أشهر ممثلي النظرية البنائية الوظيفية فكانت نظريته عبارة عن مجموعة من تلاعب بالمفاهيم والألفاظ المعقدة ليبدو عميقا في تحليله، رغم أن هذا التحليل يفتقد للموضوعية.

٢) كانت نظرية بارسونز عبارة عن تبرير أخلاقي لاستمرارية ذوي السلطة في المجتمع في التحكم فيه ويضفي على حكمهم صفة المشروعية.

٣) ان تأكيد بارسونز على فكرة التوازن عن طريق الخضوع للمعايير السائدة والمشتركة إنما هو تحذير من أي تمرد أو محاولة لتغيير الأوضاع القائمة.

٤) ينتقد عالم الاجتماع الروسي(بوبوف) النظرية الوظيفية على أساس أنها تصور المجتمع على انه نظام ابدي لا يعرف التطور والانتقال الى وضع جديد . فالنظرية الوظيفية ترفض التغير الاجتماعي

المحاضرة(٨)
الـنـظـريـة الصـراعـيـة الكلاسيكـية
(كارل ماركس)

نظرة الصراعية للمجتمع

تنظر نظرية الصراع الى المجتمع كنسق من جماعات متصارعة تمثل الكفاح من أجل الحصول على منابع الحاجات المادية الأساسية. والعوامل القابعة وراء هذا الصراع تتضمن مشاكل التنظيم الاجتماعي نفسه، مثل : تغير السكان وأنساق تقسيم العمل أو مشاكل الطبيعة البشرية ذاتها مثل سمات الشخصية والغرائز البشرية.

هذا النموذج على ما سنرى يتخذ نمطين في التفسير : أما طبيعي وأما نسقي(اجتماعي) وكل منهما تطور في نفس الوقت ، مثل النظرية العضوية، ونشأ ونما الى حد كبير في ظل فلسفة تقاليد عصر التنوير.

على أي حال فنظرية الصراع نمّاها جماعة من المفكرين الذين كانت خلفيتهم وخبراتهم الاجتماعية – تختلف كلية عن جماعة النظريات العضوية الوظيفية الذين كانت اهتماماتهم تنصب على الحاجات الإنسانية والتغير الاجتماعي اكثر من اهتمامهم بمشاكل النسق أو مشاكل التنظيم الاجتماعي، بل كانوا يحاولون إعادة النظام الاجتماعي. بينما بالنسبة لمنظري نموذج الصراع كان يتميز ذلك النموذج بأساسه الأيديولوجي، وهكذا أصبحت النظرية الاجتماعية عندهم عبارة عن ردة فعل للمشاكل الاجتماعية كما يراها هؤلاء المفكرون

الظروف الاجتماعية لمنظري الصراعية:

عند دراسة نظرية الصراع سنجد أنها تشمل مفكرين ابعد ما يكونوا عن التجانس فهم مختلفون كل الاختلاف. ومع ذلك فان هؤلاء المنظرين يجمعهم متشابهات عامة معينة. فأصولهم الاجتماعية تميل الى الانتماء الى الطبقة الدنيا، أو الشريحة السفلى من الطبقة الوسطى، اكثر منها الى الطبقة العليا من الوسطى أو العليا. ولقد تلقى معظمهم نوعا من تعليم عصر التنوير في مواضع معينة مثل الكلاسيكيات ، والفلسفة والتاريخ والقانون والاقتصاد، وكان ينصب اهتمامهم على السياسة والنشاط العمالي، ولقد عانو من وطأة الضغط السياسي، والصراع في مجتمعاتهم ، ولقد نشأوا في ظل فلسفات ومثل عصر التنوير من الطبيعية والمثالية والتطور والمذاهب العقلية والنفعية والاشتراكية.

وتجدر الإشارة الى ملاحظة هامة وهي أن نظريات الصراع ليست وحيدة النمط في التطرف الأيديولوجي، إذ نرى بينها أشكال متعددة من النماذج فنظريات الصراع تميل الى الاختلاف في الأيديولوجية طبقا للأنماط الهامة التي تستخدمها في التفسير . ففكرة المشاكل الاجتماعية عند ماركس وبارك هي اكثر تطرفا في التطبيق، بينما النظرية الطبيعية وبصفة خاصة التي أنشاها باريتو Pareto اكثر محافظة في نغمتها وهدفها، ومع ذلك فكل من النمطين يؤكد على الصراع والتغير في صياغتها لمفاهيم المجتمع.

يمكن شرح الاختلافات السابقة بين نظريات الصراع سواء من ناحية التطرف الأيديولوجي أو من ناحية العوامل المستخدمة في التفسير وذلك في النقاط التالية:

١- طبقا للنظر الى المشاكل الاجتماعية، يصبح الصراع من اجل إشباع الحاجات يؤدي الى الصراع والتغير .بينما الدراسة التي تتخذ العوامل الطبيعية كأداة لتفسير نفس العمليات تفترض انه هناك خصائص معينة منغرسة في الطبيعة البشرية (رواسب أو سمات) تؤدي للصراع.

٢- فمثلا يعتبر ماركس وبارك ان الظروف الاقتصادية والبيئية تفسر اتجاه سلوك الصراع بينما باريتو وفبلن يعتبران ان الأفكار والقيم اكثر فاعلية في تفسير نفس العمليات أي التغير والصراع، مما يفصح بوضوح عن ان نظرة باتو وفبلن نظرة معيارية.

على أي حال كلن من النمطين لنظريات الصراع نسقي وتطوري وطبيعي، مؤسسة على نظرة للمجتمع تراه وأنه قائم على نوع من التوازن سواء كان مؤقتا أو غير مستقر.

وهكذا تقدم نظرية الصراع نموذجا نسقيا للمجتمع وتشبه النظرية العضوية الوظيفية في بناء شروحا وتفسيراتها إلا أنها تختلف عنها في نظرتها الى المجتمع على انه مؤسس على المنافسة والسيادة والصراع بدلا من الاتفاق والتكامل عند النظريات العضوية والبنائية الوظيفية. كما ان نظريات الصراع تختلف فيما بينها فيما تركز عليه من عوامل اجتماعية ذات وحدات كبرى Macroscopic أوعوامل طبيعية ذات وحدات صغرى Microscopicوتفترض أنها الأسس الهامة لعمليات التغير والصراع. وأخيرا يمكن القول ان نظريات الصراع تختلف بشدة عن النظريات العضوية في تركيزها بصفة عامة على الحاجات الإنسانية اكثر منها على الأولويات الاجتماعية أو النسقية، أي ان نظريات الصراع تركز على الحاجات الإنسانية بينما النظريات العضوية والوظيفية تركز على حاجات النسق. وهكذا بينما قد يتشابه بناء هذه النظريات فان المضمون الأيديولوجي يختلف تماما.

كارل ماركس ١٨١٧-١٨٨٣م

ولد ماركس في ألمانيا، وهو ابن محامي يهودي. ودرس التاريخ والفلسفة والقانون وشارك في الصحافة والسياسة المتطرفة، وشارك في الاتحاد الدولي للعمال وكذلك مجلس المنظمة الشيوعية وكان سلوكه عبارة عن رد فعل للضغط السياسي والاقتصادي الحاصل في ألمانيا.

أهداف كارل ماركس :

كان هدف ماركس هو تحليل العلاقة بين البناء التحتي(الاقتصاد) وبين الأبنية العليا (الفرعية) وهي بقية نظم المجتمع. وذلك على أسس من الاستمرارية والتغير خلال التطور التاريخي للمجتمع. مثل هذه العلاقة المتبادلة كانت الأساس لأفكار ماركس وهو يفترض أن الإنسان تحت تأثير التصنيع والاستغلال الرأسمالي تحول من رجل طبيعي الى رجل مغترب Alienated Man.

ومن ثم فالهدف الأيديولوجي لماركس هو إعادة تحويل المجتمع الى حالة يوجد فيها الرجل الطبيعي بدلا من الرجل المغترب، وذلك بإعادة تركيب البيئة الطبيعية النظرية المادية التاريخية والاجتماعية، وكرد فعل للضغط السياسي والاقتصادي في عصره نما نظرية جدلية لتوجيه التغير في المجتمع مع التركيز بصفة خاصة على البناءات الفرعية الاقتصادية، ولذلك سميت بالمادية الجدلية التاريخية.

النظرية المادية التاريخية:

لقد كان ماركس متأثرا بشدة بفلسفة هيجل. وافترض ماركس أن ديالكتيك هيجل هو أوسع مذهب من مذاهب التطور واقرها مضمونا وأشدها عمقا.

وفي الحقيقة لا يمكن فهم نظرية ماركس إلا اذا عرضنا بإيجاز لنظرية هيجل في هذا الصدد، أراد هيجل ان يفسر التطور أو الصيرورة من الناحية الصورية المجردة **وأراد أن يستخدم في هذا التفسير المنهج الجدلي أو التحليل الديالكتيكي،** وفي هذا الصدد يقول **(أن كل فكرة تحمل في طياتها عناصر نقيضها)** ويطبق هذه الفكرة على الوجود والمجتمع. واجتماع النقيضين على هذا النحو هو الذي يفسر ظاهرة التغير، فلو لم تكن عناصر النقيضين موجودة في الشيء على حالته الأصلية لما تصورنا تغيره من حالة الى أخرى.

هذا المنهج (المثالي) استخدمه هيجل ليكشف كيف تتمم العملية التاريخية نفسها في المجتمع، عند هيجل الروح هي المحدد للتغير ، فاحل ماركس محلها الظروف المادية بمعنى العامل الاقتصادي. نزعة المادية هي الجزء المقابل لنزعة المثالية عند هيجل.

لقد كانت فلسفة هيجل تعالج تطور العقل والأفكار، كانت مثالية تجعل تطور الطبيعة والإنسان وعلاقات الناس الاجتماعية ناتجه عن تطور العقل . وقد احتفظ ماركس بفكرة هيجل عن حركة التطور الدائم أي منهجه الديالكتيكي، أي نظرية التطور.

ولكن ماركس طرح وجهة النظر المثالية جانبا، واعتبر أنه ليس تطور العقل هو الذي يفسر الطبيعة بل ان الأمر على العكس. لقد كان هيجل ان حركة الفكر، هذه الحركة التي يطلق عليها **(اسم الفكرة)** هي الصانع للواقع بينما ماركس يرى حركة الفكر ليست إلا انعكاسا لحركة المادة منقولة الى فكر الإنسان ومتحولة فيه.

فالحركة عند ماركس شكل وجود المادة. فمثلا ذوبان الثلج وتحوله الى ماء هذه الحركة من الجامد الى السائل أعطت العقل فكرة ان الثلج يذوب بالحرارة، فكان كل المعاني والأفكار التي يحتويها العقل الإنساني هي من حركة المادة في الطبيعة.

واعتبر ماركس انه لم يوجد ولا يمكن ان يوجد في أي مكان مادة بدون حركة ولا حركة بدون مادة. ومن ثم اعتبر ماركس انه بما ان إنتاج العقل الإنساني هو في أخر التحليل هو نتاج الطبيعة. وهكذا لا يوجد في راي ماركس إلا المادة أما الأفكار والوعي فهي مظاهر لاحقة وناتجه عن تحول حركة المادة في العقل الى أفكار ووعي.

وهكذا اقتنع ماركس بانه يجب علم الاجتماع منسجما مع الأساس المادي وإعادة بناؤه استنادا على هذا الأساس. فالمادية هي لب النظرية الماركسية. ولكن ماركس – لم يتوقف على حد تعبيره – عند مادية القرن ١٩م، إذ اعتبر ان المادية القديمة كانت تتوقف عن معرفة الطبيعة وهو انتقل بها الى معرفة المجتمع البشري. وبذلك اعتبر ماركس انه بتوسيع المادية لتشمل الظواهر الاجتماعية قضى على عيوب النظريات التاريخية السابقة له، إذ لم تكن تلك النظريات في رايه تأخذ في اعتبارها غير الدوافع الفكرية لنشاط الناس التاريخي، دون ان تبحث عما يولد هذه الدوافع ودون ان تدرك القوانين الموضوعية التي تحكم وتطور نظام العلاقات الاجتماعية، ودون أن نرى جذور هذه العلاقات في درجة تطور الإنتاج المادي.

فالمادية هي لب النظرية الماركسية، فهي تنتمي الى نزعة الحتمية الاقتصادية التي تذهب الى ان العامل الاقتصادي هو المحدد الأساسي لبناء المجتمع وتطوره، وانها أوضحت عماية ظهور جماعات المجتمع الاقتصادية وتطورها وانهيارها، وذلك عن طريق تحليلها لمجموعة الاتجاهات المتناقضة وردها الى ظروف المعيشة والإنتاج لمختلف جميع طبقات المجتمع. أي أن الأسلوب الاقتصادي السائد في الإنتاج والتبادل يشكل في كل حقبة تاريخية معينة مع التنظيم الاجتماعي المنبثق بالضرورة عنه. الأساس الذي يوم عليه تاريخ هذه الحقبة السياسي والفكري، والذي يمكن بالاعتماد عليه فقط تفسير التاريخ. فالماركسية تعتبر ان مرحلة النمو التكنو لوجي تحدد أسلوب الإنتاج والعلاقات والنظم التي تكوّن النسق الاقتصادي. هذه المجموعة من العلاقات بدورها هي المحدد الرئيسي لكل النظام الاجتماعي .ولكن في راي ماركس ان النظامين الاجتماعي والاقتصادي لا يتطابقا لان النظام الاقتصادي يتغير نتيجة النمو التكنولوجي. والنظام الاجتماعي باقٍ على ما هو عليه فقد أنشأ أيديولوجيته وأصبحت له مصالح مختلفة، ومن ثم يقاوم التغير ، وهكذا يقع التناقض بين النظام القديم، وبين التصورات الفكرية التي انبعثت من تغير قوى المجتمع المنتجة وعدلت مفاهيم الناس عن أدوارهم فتقع الثورة.

وهكذا طبقا لهذه النظرية التي يسميها الماركسيون نظرية الصراع الطبقي افترض ماركس ان كل تاريخ البشرية هو تاريخ للصراع بين الطبقات ، بين الطبقة المستغلة والمستغلة، ذلك ان ماركس يفترض انه في مرحلة الإنتاج الرأسمالي حيث صاحب رأس المال يملك وسائل الإنتاج ويحقق أرباحا طائلة من فائض قيمة عمل العمال. فصاحب رأس المال هذا يأخذ النصيب الأكبر من الربح ولا يعطي العامل إلا ما يقيم حياته.

اذا المشكلة كلها عند ماركس تتلخص في عدم عدالة توزيع عائد الإنتاج بين صاحب راس المال والعمال.

اذ ان الإنتاج بذاته لا يقوم بعملية التوزيع ولكن القائم بعملية التوزيع هو صاحب راس المال، ومن ثم فعدالة التوزيع أو عدمها هي فكرة أخلاقية في تصورات الرجل الرأسمالي الذي يملك ويؤدي دور الموزع في النظام الرأسمالي الذي أعطاه هذا الحق. ومن ثم يتضح بجلاء ان مفهوم عدالة التوزيع أو عدمها هي علاقة اجتماعية ذات طابع اقتصادي أساسها لا مادي . وذلك عكس ما ذهب اليه ماركس، ومن ثم فان التغير في العلاقات الإنتاجية لم يؤدِ الى تغير في البناء الأعلى.

ويلاحظ أن عدم عدالة التوزيع هي الفكرة المحورية في النظرية الماركسية ، وهذه الفكرة كما بينا نابعة من سلبية أخلاق البرجوازيين في عصره ،ولكن تعنت ماركس المادي أو أيديولوجيته أعمته عن هذه الحقيقة ، وافترض أن عدم عدالة التوزيع راجعة لان صاحب راس المال يملك وسائل الإنتاج.

واعتبر الملكية الخاصة هي سبب استغلال أصحاب رؤوس الأموال لطبقة العمال .وبذلك أراد أن يمحو هذه الملكية الخاصة ويحولها الى ملكية جمعية، ومن أجل هذا افترض أن هناك علاقة وثيقة بين النظامين الاقتصادي والسياسي حتى جعلهما كوجهي العملة لا يمكن فصلهما .